

جرح الذاكرة

عبد الوهاب حامد

اسم الكتاب: جرحُ الذاكرة

المؤلف: عبد الوهاب حامد

الناشر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: محمد فاروق

التجهيزات الفنية: حسام أنيس



٢٥ شارع شريف - القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٦٣٢٧

الترقيم الدولي: ٢ - ٥٢ - ١٦ - ٥٠١٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

حامد، عبد الوهاب.

جرحُ الذاكرة: رواية / عبد الوهاب حامد - ط ١. - القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

١٢٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٢ - ٥٢ - ١٦ - ٥٠١٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص العربية.

أ - العنوان.

جرحُ الذاكرة

عبد الوهاب حامد



م ٢٠١٣

إلى

محمد سعيد عبد الله (أبو عادل)

هنيئاً لمن غُيِّبَ خلف أسوار الظلام، قبل أن يشهد ذلَّ الوطن

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تغادر فيها قريتها الوادعة وأهلها
الطيبين، لكنّ هاجساً ما، أو أفكاراً سوداء تطفو اليوم معتمّة في ذهنها،
فتشير في نفسها عواطفَ جياشةٍ وأحاسيسَ تجعلها مضطربة، خائفة،
كأنّها ماضية إلى عوالم مجهولة لن تعود منها.

أسندت ظهرها إلى الجدار، ثم أطلقت لجلب أفكارها العنان:
لو أن الله فتح لنا باباً آخر من أبواب الرزق فأراحنا من السفر إلى
"شامبقو" البعيدة!

- ألا يمكن أن نزرع الفولَ هنا في "عونا"؟¹

- ولكن ما الذي يكدّرني اليوم وقد تعودتُ على ذلك! ثلاثة
مواسم قضيتها بين حقول الفول و"الماشيل"² أكابد المشاقّ وأتحمل
عناءَ العمل ساعاتٍ طويلةً في أرضٍ تصهرها حرارةُ الصيفِ بشمسٍ
حارقةٍ كالأتون..

- آه يا أبي، فلتخلد روحك في جنّات الخلد مع الصديقين
والشهداء، فقد كنتَ تشقى وتكدّ من أجلنا. الان فقط أدركتُ ما
كان يصيبك من تعبٍ وعناءٍ كنتَ تُواريه تحت ابتسامَةٍ وضيئةٍ تلقانا بها

¹ ضاحية من ضواحي مدينة "كرون".

² نوع من حبوب الذرة.

حين كنّا نستقبلك أنا وإخوتي في أطراف القرية عند انتهاء موسم الحصاد.

- عودتك التي كنّا ننظرها بفارق الصبر ورائحة العرق التي تعبق من ثيابك، ما أحبّها إلى نفسي، لقد بتُّ أحنُّ إليها.

- حنوك يا أبي وعطفك علينا، شهامتك المعهودة بين أهل القرية

و...

- تباً للمرأة الخائنة، التي سوّلت لها نفسها الدنيئة أن تبيع الوطن وترمي رجالاً بقامة "أرها" في جُبِّ الغياب القسري.

- ما ذنبُ أبي حتى تشي به ليقْتُلُهُ الغرباءُ الذين تجرّدت قلوبهم من الرحمة والعدل؟!

- "بركة"³.. آه، أيّ سخريةٍ مريرة أن يكون هذا اسمَ المرأة التي ترسل الرجال غدرًا إلى الجحيم؟

- أليست مفارقةً عجيبةً أن يكون هذا اسمَ المرأة التي تقتاتُ من خبز الأيتام، وتنشر الرعبَ بين الناس، وتمشي كأن شيئاً لم يكن؟!

بينما كانت "زهرة أرها" تسبحُ في بحر أفكارها وذكرياتها المريرة، صفعَ أذنها صوتٌ تألفه جيداً، لكنه آخر ما توقّعت سماعه في تلك اللحظة، ذلك لأنها حين باغتها محاضُ الحزن واستبدَّ الأسى بها، آثرتُ

³ أيّ تشابه أو تطابق في الأسماء، ليس مقصوداً، وإن حدث فبمحض الصدفة.

أن تتروي بعيداً عن أمها وإخوتها الصغار حتى لا تحرك في نفوسهم
كوا من الحزن والألم الدفين.

لكن تلك المرأة الحاذقة اكتشفت بحاسة الأمومة التي لا تخيب ولا
تخطئ أن ثمة ما يعكر صفو ابنتها الحبيبة، فاقتفت أثرها وسط المروج
الخضراء بين شجيرات الجوافة والليمون في المزرعة المتاخمة لدارهن
الكائنة على أطراف القرية.

كانت "زهرة أرها" تعتقد أنها بهروبها إلى ذلك المكان الموحش إنما
تجفف دموع أحزائها من دون أن تثير الفضول، لحرصها على ألا تنكأ
جراح أمها أو تشقيها بأكثر مما هي فيه، لكن اعتقادها لم يكن مُصيباً،
فقد بدا في قسما ت وجهها حين عادت من عزلتها ما كان يفضح
سرّها، وسرعان ما اتمارت أمام فراسة الأم التي كانت تضع إصبعها
على الجرح دوماً، كأنها عرّافة تسبر أغوار الحقيقة ولا يخطئ حدسها.

— ما بال القمر يبدو حزينا، شاحباً هكذا؟

تلعثمت "زهرة" واضطربت حين لامس صوت أمها الدافئ الرقيق،
طبلتي أذنيها، وبُهِتت للمفاجأة، إذ كانت تركتها في البيت واندست
بين الأشجار الكثيفة وتسللت من دون أن يراها أحد، فكيف اهتدت
إليها، وكيف عرفت أنها هناك؟!

والحق يُقال، إنه ليس من قبيل المبالغة أن تصف تلك المرأة ابنتها بـ"القمر"، فقد كانت "زهرة" على قدرٍ من الجمال كافٍ.
صحيحٌ أنه ليس ذلك الجمال الصارخ الذي يستدعي محيطة الشعراء، لكنه على كل حال جمالٌ نالت منه منغصات الحياة وسيجته بغيمة سوداء ودفنت محاسنه تحت ركام المحن، فبدأ مُهملاً، منسياً، لا يدرّ لصاحبه سوى العطف والشفقة.

شاءت الأقدار أن تحمل تلك اليافعة همّ الأسرة باكراً قبل أن ينضج عودها، فأمها مريضة لا تقوى على شيء، وأبوها الذي مات لم يترك لها سوى إخوة صغار ودموع غزيرة.

منذ أن وعت وأبصرت النور، وجدت نفسها وحيدة كصخرةٍ عنيدة.

تصلبت في بحرٍ متلاطم الأمواج، ولكن رغم ذلك فقد حباها الله مقدرةً تفوق الوصف في امتصاص الألم ومُدارة الجرح حتى عن أقرب الناس إليها.

وحين شمّرت عن ساعديها لتسدّ رمق إخوتها وتقيهم سطوة الحر وزمهير الشتاء، لم يكن عمرها قد تجاوز الثانية عشرة بعد.

هكذا وجدتُ نفسها تُزاحم الرجال في الحقول والأسواق، ثم تعود إلى بيتها في غسق الليل بجسدٍ ضامرٍ نحيلٍ تعبت الرياح به وينخره البرد.

— ما بال القمر يبدو حزيناً، شاحباً هكذا؟

لم تكن تحفل بمثل هذا الإطراء الذي تتمنى سماعه وتطرب له كلُّ النساء في وجه الأرض، ليس لأن ذلك لا يروق لها أو لأنه ترفٌ يجب أن تغض الطرف عنه في خصمٍ سعيها الدؤوب لإرساء دعائم تلك الأسرة التي عصفتُ بها الأقدار.

كلا، فالغواني يغريهنَّ الشناء، وكثيراً ما سمعتُ أكثر من مرة ورأتُ بأم عينها ولعَ الشباب وشغفهم بها، بل كثيراً ما رأتهم يتبارون ويسعون لكسب ودها، فقد أدركت قبل أمها أنها "صنوُ القمر".

لكنَّ "زهرة" التي فارقت دنيا النواعم والرقّة والجمال ولم تعد تلك المعاني مُدرجةً في جدول اهتماماتها اليومية، لم تكن تطمح في تلك اللحظة لأكثر من أن يجعل الله في ردّها برداً وسلاماً على أمها المريضة، التي لم يعد قلبها المتعب العليل، يتحمل مثقالَ ذرة من الأحزان والآلام. لقد عانت تلك المرأة وتجرعت كأسَ الهوان حين فقدت زوجها الذي انتزعه البرابرة القساة من بين أحضانها، وذبحوه كما تُذبح الشاة، ثم رموا جثته على قارعة الطريق.

لم تكن "زهرة" حينذاك قد تجاوزت الخامسة من العمر، لكنّ تلك الذكرى المشؤومة ما زالت تلحّ على مخيلتها، فيحتمد الحزن ويضطّرم ليورثها آلاماً لا حدود لها.

وهي إن تنسَ فلن تنسى ملامح ذلك الدرّكي الوغد، الذي ركّلها بحدائه حين تشبّثت بأبيها المكبّل بالقيود والذي طفرت من عينيه دمعاً حزن بللت لحيتَهُ الكثّه.

لقد مضى على ذلك عقد من الزمن، لكنها ما زالت تداري في حناياها حزناً تحاول أن تخفيه عن أمها، ثم لا يلبث أن يثور ويغلي كالمرجّل، فماذا تصنع؟

– مَنْ يثار لأبيها؟

– مَنْ ينتقم لها من تلك "الجاسوسة" اللعينة التي غدرتْ بوالدها

الحبيب؟

– مَنْ يضمّد جراح أمّها النازفة إن تقاعست هي عن ذلك؟

فقد عاشت ردحاً من الزمن في كنف الجهل بما اعترى حياتهم من بؤس جرّتهم إليه تلك المرأة الفاجرة، أما اليوم وقد زالت تلك الغشاوة وطفح كيل الحزن والأسى، فحريّ بها أن تفعل شيئاً يسكّن جراحها النازفة ويعيد لها كرامتها المسلوّبة.

- ليس أتعس من أن ترى نفسك وحيداً تواجه العالم الذي لا يصغي إليك!

توقفت قليلاً سارحةً ببصرها في أفقٍ بلا نهاية ثم استطردت:

- على كثرة ما في "عونا" من رجال، إلا أن أحداً منهم لم يهباً لنصرتها!

قبل أن تشطح في خيالها وتصوراها الخاطئة، تذكرت "منصور" الذي حدثها ذات مساء أن القرية تفقد واحداً أو اثنين من أبنائها الشبان يوماً، وأنه قد قرر أن يلحق بهم ليشارك في استعادة الحرية للوطن الجريح.

سرحت بباهها بعيداً في عوالم ذلك الشاب الشهم، الذي باتت تنظر إليه كفارس أحلام تتمنى أن تقترن به، ثم ارتقت في أحضان أمها وأجهشت بالبكاء.

- "شامبقو" ليست بعيدة يا بنيّتي، وغيابك لن يطول ياذن الله، كفكفي دموعك ولا تحزني.

لم تضع إصبعها على الجرح هذه المرة، ولم تفلح في الوصول إلى كُنه الحقيقة التي تؤرق بال ابنتها، لكنها على كل حال لم تذهب بعيداً في ظنها، فقد نجد في استنتاجها جزءاً من الوسوس والهموم التي تمجس بها الصبية.

أما "زهرة" فقد كادت تسدد في وجه أمها لطمة موجعة حين
قررت أن تزيح عن صدرها باروداً تأجج ناره في دواخلها فتقول:
- لن أذهب إلى "شامبقو" غداً، بل سأنضم إلى "جيش التحرير"،
لأناضل ضد العدو الذي يجثم فوق صدورنا!
لكنّ الكلمات تشرجت في صدرها، ولم يقوَ لسانها على النطق،
فلاذت بالصمت، وجعلت تصوّب عينيها نحو سماء ملبّدة بالغيوم.

كانت "عونا" في ذلك الخريف قد تزّينت بخضرة شاملة، ولبست
أشجار السدر ثياباً من الخضرة اليانعة، وتفتّحت الورود والزهور على
مرمى البصر في كل الاتجاهات.
تحرك "الترينو"⁴ مسرعاً وجعل يتلوى بهم كالأفعى بين الجبال
الشاهقة.
وئيداً وئيداً كانت الشمس تنحدر وتلقي بظلال باهتة تنلصص بين
السحب الراحلة، فتختفي تارة وتظهر أخرى.
التفتت "زهرة" إلى الوراء، فلاح لها "عونا" من بعيد تحفةً بديعةً
نادرة.

⁴كلمة إيطالية تعني قطار البخار الذي يجر أكثر من عربة.

فتحت النافذة وسرحت ببصرها بعيداً.

كانت غزلانُ الريل ذات القرون المعقوفة تتقافز، وقد تجمّعت قطعان من القروود المبرقعة حول غديرٍ أسفل الجبل.

"ما أروع هذا المشهد!"، قالت "سعاد" وهي تشير إلى سربٍ من الطيور الملونة اصطفّت في طيراتها في خطوطٍ متماوجة.

ظلت "زهرة" ساهمةً تحدّق في الأفق البعيد.

"انظروا كيف تحتفل الطيور بالحياة، بينما تتلفح (زهرة) ثوب الحداد"، تابعت "سعاد" كأنما تخاطب جمعاً من الناس.

لم تفلح "زهرة" في كبح تيارٍ من الحزن الصاخب سرى في قلبها منسرباً عبر مسامٍ ذاكرتها الجريجة، فانكفأت على نفسها ولم تُعرّ صديقتها اهتماماً، بل رمقتها بنظرةٍ حانقة ثم أرسلت بصرها مرةً أخرى بعيداً عبر النافذة.

- لقد ضرب الفقر أطنابهُ وصرنا نتكبد المشاق من أجل لقمة العيش التي لم تكن قبل ظهور هذه "الثورة" همّاً أو مطلباً، فقد كنا نعيش في رغدٍ وصفاء.

عادت "سعاد" تحكي ظانّةً أنّها بذلك التحليل السطحي تصيب كبد الحقيقة.

اكتفت "زهرة" بزّم شفيتها كعادتها حين تستثقل الآخرين وقملّ
حديثهم.

سادت فترة صمت تخلّلتها وقُع المطر يصفع الألواح الزجاجية
للنافذة.

زاد "اللترينو" سرعته، فلاحت أكواخ "قِرسا" من بعيد.
بدت كأنها تسير عكس اتجاه "اللترينو" الذي كانت عجلاته تنهب
الأرض فنبأ فتحدث الضوضاء.

خلال الرحلة الطويلة لم تنفوه "زهرة" سوى بعباراتٍ موجزة
ومقتضبة، فقد شغلت نفسها بهمومٍ وهواجس لم تكن تهدأ في نفسها
حتى تثور من جديد، فقد حدّثها "منصور" ذات مساءٍ ككل مساءات
"عونا" المنكفئة على ضفاف معاناتها، بسرّ عظيم ما كان يريد أن يبوح
به لأحد، لكنه ضعّف أمامها حين استفزت مشاعره بسؤال حرّك في
نفسه نخوة الرجال:

- متى سيأتي دورك وتلحق بالأبطال في "الميدان"؟
لم تكن ترغب أو تتمنى أن تفرّق الأيام بينهما، لكنها كانت تنظر
إلى أولئك المناضلين بعين الرضى وتتمنى أن يكون فارسُ أحلامها
واحداً منهم.

هكذا غرزت خنجراً في صميم رجولته، فزأر في وجهها وهو يلوّح
بمدية انعكس بريقها تحت أشعة القمر:

- لن أعادر "عوناً" قبل أن أمزق أحشاءها وأسفك دمها مثلما
فعلتُ بخيرة رجالنا!

لم يكن يساورها الشك في وفاء "منصور" وصدق عزمته، لكنها
انغمست بكل حواسها في تحليل السيناريو القادم، فهل سيمر الحدث
كما تمر النكبات بأهلها يوماً بعد الآخر؟
وهل سيكتفي الأعداء بتأيين عملياتهم؟
هل....

قبل أن تستدير الأسئلة في فمها دورةً كاملة، كانت صافرة
"الترينو" تدوي وسط السكون الساجي لتعلن انتهاء الرحلة والوصول
إلى "شامبقو".

أما هناك في "عوناً"، فقد طافت بذهن "منصور" أسئلة مريرة،
فوقف فوق أعلى قمة تشرف على القرية المكلومة بالحزن المبالغ
وشبح الموت الذي يطوف حولها مثل غربان تنعق حول جثة ملقاة في
العراء.

- متى تورق الجذور اليابسة ويخضّر اليباب؟

- متى تهمي سحائب الفرح في رواي "عوناً" لتخضّر مساحات

الأماني المخملية؟

- متى يعود "شكيني" ورفاقه الذين مروا من هنا ولم يتركوا معالم
خطاهم؟

كانت عيناه مصوّبتين باتجاه الأفق البعيد، وذراعاه تلوحان في
الفضاء كشراعين تائهين يبحران في الجھول.

لقد أعياه الانتظار ومزّق الحزن أشرعة أحلامه، لكنه لم يستسلم ولم
يدعن لنداء ساخر يورث في نفسه الحنق:

- انكفئ على أحزانك ومُتْ غيظاً أيها المتخاذل الجبان!

تحسس خنجره ثم جعل يستنّه في حجرٍ أملس، ثم ينظر إليه فيعيد
الكرة مرةً أخرى حتى صار الخنجر يلمع وينعكس بريقه تحت ضوء
القمر الذي بدأ يجبو خلف السحب الراحلة.

كانت الرياح تزجر، والأمواج قهّدر وتنوح، كأنها تفرع أجراس
الحزن لجنازة طفلٍ شقيّ لفظ البحرُ جثته.

وحين بدأ الضباب يطمس كل شيء كان "منصور" يتجه بثباتٍ
صوب الهدف.

كانت "بركة" قد شرعت في حياكة كفنٍ جديدٍ لضحيةٍ جديدة.
إنها امرأة سافلة تبدو مثل حية رقطاع تنفث سموم أحقادها فتشعر
بنشوةٍ عارمة، ثم تمشي على الأرض متبخترّة كأنها أنجرت مهمة نبيلة.

توقّف مبهوراً حين رآها تتلصص عبر النافذة على جارها "أسناي" الذي كان يُعدّ وجبة العشاء للفدائيين المرابطين خلف جبل "سالال"!
"ود أسبر"°، صاح "منصور" وقد طرأ على باله خاطر مزعج: أن تفقد "عوناً" رجلاً بقامة "أسناي".

"لا.. لا.."، قال، ثم اتجه صوبها وانقضّ عليها، فاستسلمت له وقد أجم الخوفُ والفرع صوتها، وانكمت صرختها كما انكمت أنفاسها بعد ثوانٍ قليلة.

"لماذا يحتاج الوطن دائماً إلى الدماء كما يحتاج السمكُ إلى الماء؟"، تساءل "منصور" وهو يغدّ السير لاحقاً بالركب الميمون.

وهنا، في "شامبقو"، حيث تمتد حقول الفول والذرة بامتداد البصر، وتسدّ الحضرةُ وجهَ الأفق فتستحيل المرائي اخضراراً يبعث في النفس فرحاً نادراً.. في هذه الأرض البكر تجيش الحياة في دفقاتٍ مدهشة، فتمتلئ المشاهد بالحيوية، وتعج القرية بالناس، تسمع دندناهم وسطَ الحقول كأغابي البحّارة حين يرفعون المراسي وينشرون أشرعة الرحيل.

⁵ تتنادى معظم القبائل الإريترية بكنيات محددة تُستخدم للتعبير عن الفخر والشجاعه، والدهشة أحياناً.

أصوات تعلو وتخفت.. قهقهات تبدو آتية من فجٍّ بعيد.. أنغامً
ربابة شجية تُدَوِّنُ أغنية عاطفية قديمة .. وسط ذلك الكرنفال
البهيج تناهت إلى سمعها همهماتٌ تبدّت لها مثل صرخة مكتومة،
فالتفتت "زهرة" إلى "سعاد" التي كانت تبكي بحرقةٍ مَنْ فَقَدَ عزيزاً
لديه!

– ما الذي نكأ جرحَ الذاكرة الآن؟

تساءلت مندهشةً من تلك الصحوّة المفاجئة لرفيقة العمر التي
استجابت أخيراً لأوتار الأيام التي لامست مشاعرها الجمادة.
كغيرها من الناس كانت "سعاد" قد استكانت، ولم تجد مفرّاً من
العيش تحت دخان الموت وصراخ الفواجع وقد أرغمها على
الاستسلام، ذلك الخنوع الذي كان يظلل قريتها وأهلها الذين رضوا
بما قدّر الله لهم، فعاشوا رازحين تحت ثقل الظلم والفقر والظلمات،
لكنّ شيئاً ما قد تحرّك في دواخلها اليوم ودحرجها من فضاء الغياب إلى
أرض الواقع.

"سبحان الله"، قالت "زهرة" ثم أضافت: "كأننا لاندرِك قيمة
الأشياء إلا حين نفتقدُها، فقد عاشت (سعاد) بيننا كورِدٍ شحيح
الرائحة، ناقصة الحواس مثل أيِّ مخلوقٍ يمشي على الأرض ولا تعباً
الحياةُ به، فما الذي استيقظ في دواخلها الآن؟".

"ما الذي يكدرّ صفاء الورد؟"، سألتها مستخدمةً الأسلوب نفسه الذي كانت تدلّلهَا أمّها به.

- إنه ألمُ الفراق الذي يعتصر أحشائي.

- أتجبن "عونا"؟

"حتى النخاع"، أجابت "سعاد" ثم أضافت: "لا أتصور العيش بعيداً عن (عونا)، فهي الأكسجين الذي أتنفسه، أتمنى أن تمر الأيام سريعاً لنعود إليها ونستشق هواءها النقي".

لامست الكلمات مسامع "زهرة"، ومرت على أذنيها كنسمة لطيفة عابرة، فاغتمت الفرصة لتضيء مساحات العتمة وتهيئ لصديقتها براحاً لالتقاط الصور الخفية والمعالم المنسية:

- من يجب "عونا" يا "سعاد"، يجب أن يتذكر ويجب أولئك الرجال الذين أدمنوا الرحيل إلى الأفاصي وتقاسموا الموت حرقاً وشنقاً حين هتفوا لإشراقة الشمس النديّة في سماء الوطن الحبيب.

رأى صمت رهيب تابعت "سعاد" خلاله وميضاً يشعّ مثل منارات السواحل، فقد تبدّت لها كل كلمة من كلمات صديقتها نقطة ضوء في نهاية نفقٍ مظلم.

أما "زهرة" فقد طافت في ذهنها باقّة من الأسماء التي تنفح في الروح قبساً من سناء الشمس المشرقة: كبير، سلطان، أبو رجيلة، عبدالله ديقول، حامد جمع، قندفل، عثمان صالح، جمجم، طمبار...

- شيء جميل أن نحب الأرض التي غرست في سويدائنا بذورَ
العشق وهيأت لنا مرقداً في ضفاف النهر نستلهم من خريره معنى
الحب، ولكن....

تأوهت "زهرة" وارتسمت في قسماط وجهها علاماتُ الحزن،
بينما ظلت "سعاد" تترقب ما بعد كلمة "لكن" التي توقفت عندها
"زهرة"، كأنها تتابع مسلسلاً درامياً مشوقاً.

- لكن أختاه، الحب وحده لا يكفي لإطفاء الحريق الذي يكتنز في
باطن هذه الأرض، والجور الذي يدنسها و...

توقفت عن الكلام وجعلت تحتلس النظر باهتمام إلى ذلك الشاب
الأسمر، المشوم بمفاصد بارزة موزعة بين خدييه بالتساوي.

كان واقفاً قبالتها كالصنم، جامداً مثل تمثال من الشمع، لكنّ
شفتيه كانتا تتحركان فيندّ عنهما صوتٌ أقرب إلى الهمس منه إلى
الجهر.. وشوشة لم تستطع ترجمتها إلى حروف واضحة البيان.

- إنه "بهدوراي"، الشاب الدمث الذي أجمع الناس على حبه، تُرى
ما الذي جاء به الآن، وماذا يريد مني أنا التي لم أتحدث إليه من قرب
من قبل ولم تجمعني به أيُّ مناسبة للحديث؟

تساءلت "زهرة"، ثم أشاحت عنه، لكنها ظلت تتابعه بطرفي عينيها
حتى تيقنت من ظنونها حين لوّح لها بلفافة مغطاة بكيس من البلاستيك
الشفاف.

استأذنت صديقتها، ثم تبعته إلى داخل الحقل وسارت بمحاذاته
تسبقها هففةً لمعرفة ما يريد منها.

ابتسم "مهدوراي" وهو يناولها الرسالة التي غلفها بكيس البلاستيك
حرصاً منه حتى لا تبتلّ بمياه الأمطار الغزيرة التي تدفقت من سماء
"شامبقو" كما لم تتدفق من قبل.

بيدِ راعشة تناولت الرسالة، ثم فصّت الظرفَ وغاصت بكل
حواسها بين الحروف:

إلى "زهرة عوننا" الجميلة...

كم هي شاحبةٌ أضواء القناديل بعيداً عنك، ورحلة العمر من
دونك صحراء خرافية الامتداد مشيئتها مرغماً، لكني لن أستسلم حتى
أعبرَ جسر التلاقي لأثبت أن للزهر حضوراً على شرفة العمر، وأنك ما
زلتِ تربعين هنا في حنايا الذاكرة.

لقد تعلّمنا من أشجار "العركوكباي" يا "زهرة" أن نقف على
الجرح ونخوض هيبَ المسافات بصبرٍ وجلد، فكل بداية تتبعها نهاية.

يسرني أن أزفّ إليك هذا الخبر الجميل؛ فقد تحقّق جزء من أحلامي
بانضمامي إلى "جيش التحرير" هنا في "بركة"، وأتمنى أن يتحقّق الحلم
الأكبر حين تنشر الشمسُ بذورَ الضياء في ربوع "عوننا" ويلتئم الشملُ
هناك.

أرجو ألاّ تخزني يا "زهرة" ولا تدعي اليأس يتسلل إلى قلبك، فما زال في قنديل الثورة وهجّ يتلألًا ويرشح بالسنا ليضيء العتمة ويغمرنا فرحاً وتفاؤلاً بأن الغد هو أجمل الأيام^٦.

ستفيض أيامنا فرحاً واخضراراً وانتصاراتٍ تسحق أوهام الظلاميين الذين أعمى الحقدُ الدفينُ قلوبهم، فشرعوا يبحثون عن قناديل لإطفائها، ولكن هيهات هيهات، فإن الشعلة التي أوقدها "عواي"^٧ ورفاقه لن تنطفئ يا ذن الله.

جحافل الهمج يا "زهرة" لن تطفئ بريقَ الأمل الذي يتسع في دواخلنا يوماً بعد الآخر، فأبشري بالنصر.
منصور نوراي..

"الميدان".

اخضّر المدى أمامها فراسخ تموج بالفرح وتنشر أشرعة العطر فوق الشرفات.

لقد كانت حتى الأمس القريب تنظر إلى خريطة الوطن من خلال ثقبٍ في قلبها الجريح، لكنها اليوم ستستلهم فكرة شموخ "العركوكباي" وصمودها في وجه العواصف والرياح.

^٦ من أقوال ناظم حكمت.

^٧ مُفجّر الثورة الإريترية.

شكراً لـ"منصور" الذي يلوح لها دائماً كطوق نجاةٍ عند الملمات.
تأملت قرصَ الشمس المتوهج بالحمرة في نهاية الأفق، ثم بدأت في
اجترار الذكريات عن "عوننا" وأهلها الذين يشكّلون طيفاً جميلاً في
خيالها.

تتابعت في ذهنها الأحداث في لقطاتٍ متقطعة كومضات قصيرة، أو
كمدّ البحر الذي يثور ويندفع ليتلاشى في الشاطئ حين تمتصه الرمال.
لقد عاشت ماضياً تحوطه الكوارث والأحزان ويملاً لحظاته الجورُ
والفقر والمسغبة، وما هو ذا فجرٌ يبرز في دنياها ليبدد ظلام الأمس
ويبشّرها بغدٍ مشرق.

أعادت قراءة الرسالة مرة أخرى، فانبتق في قلبها وللمرة الأولى
شعوراً تمّنت أن تتوقف عنده دورة الحياة وسيرورتها.

أتمنى أن يتحقق الحلم الأكبر حين تنشر الشمسُ بذورَ الضياء في
ربوع "عوننا" ويلتئم الشمل هناك.

— آمين يا رب.. آمين يا رب.

تتضرع "زهرة" وترفع كفيها إلى السماء، ثم تعود مرة أخرى لنبش
الذكريات واستعادة ما حملته رسالة "منصور" إليها.

ستفيض أيامنا فرحاً واخضراراً و.....

وهل يوجد في كنانة أمانيتها سوى سهمٍ واحد تصوّبه لتمطر السماءُ
فرحاً واخضراراً، وتعود إلى شفيتها الابتسامة التي خُطفت في الظلام؟
هكذا قادتها تلك الرسالة من دوامة التيه إلى فسحة الأمل،
فلاحظت ذلك "سعاد" التي ظلت لبرهة من الزمن مستنفرة الحواس،
مبهوتة تنظر باهتمام شديد لما يدور بالقرب منها، فخامر ذهنها مزيجٌ
من الخوف والدهشة والفضول.

– تُرى بأيّ خبر مفجع قد جاء "بهدوراي" الآن؟
تساءلت بتوجُّس وخيفة من أن يكون مكروهاً قد حدث للأهل
هناك في "عوننا"، لكنها سرعان ما استبعدت ذلك الخاطر المزعج حين
رأت هالةً من الفرح تشع في وجه صديقتها.

– إذاً هو "منصور" ولا أحد غيره يعبث بأوتار مشاعرها.
قالت وهي تتلّهى بالنظر إلى الغيوم التي تكاثفت لتغطي سماء
"شامبقو".

أما "زهرة"، فقد انبجس شعور غريب في داخلها، فهزّتها هزّاً
عنيفاً:

شجنٌ يعبث بأوتار الذكريات، وفرحٌ يترجرج في الأعماق!
ترقرق الدمع في خديها وسال مثل حبيبات الندى.
طوت الرسالة ودستها في جيب فستانها ذي الأكمام الطويلة، ثم
مشت بين سنابل القمح تنشد أقصر الطرق لملاقاة صديقتها.

كانت الطبيعة قد تمرّدت في ذلك العام، أو لعلها "تآمرت" ضد سكان "عوننا" وفق تعبير "ود قمش" الذي يجنح دائماً إلى فلسفة الأمور وطلاتها بالأسود القاتم إمعاناً منه في التشاؤم.

حلّ الشتاء بغير عاداته، قاسياً، يحمل في ما يحمل كوارث وأمراضاً لا تحتملها تلك الأجساد الطرية التي هدّها الفقر والجوع، ونالت منها آفة الحرب التي ظلت تفتح فمها لالتهام المزيد من أحلامها البسيطة.

ربما كانت تعليقات "ود قمش" وكلماته الساخطة تعبّر عن حالة من الإحباط المزمّن واليأس الذي استوطن الديار التي حباها الله جمالاً يفوق الوصف، لكنّ يداً خفية امتدت في الظلام لتحرمها نعمة الاستقرار والعيش الهانئ.

لم تكن لـ"ود قمش" جذورٌ راسخة في "عوننا"، وليس من أحد يستطيع أن يحدد الوجهة التي أتى منها، فقد اختلف الناس في أمره كأنه نبت شيطاني نما في غفلةٍ من الدهر.. وقد ساهم هو في رسم دائرة الشك حوله بتصرفاته المثيرة للجدل، فقد كان يدسّ أنفه في كل كبيرة وصغيرة من شؤون القرية، ولم يكن يأبه لنظرات الناس الحانقة والمستنكرة حتى استطاع بصبرٍ يُحسد عليه أن يذوّب جبل الجليد الذي يباعد مساحات التفاهم بينه وبينهم، بل إنه استمال قلوبهم حتى صار يزاحم أعيان القرية في أبراجهم العالية.

لم تكن العلاقة بين "ود قمش" و"منصور" على ما يرام، فحين كان الناس يدعون لـ"منصور" بالعودة ظافراً وسالماً من الأذى، كان هو مسروراً مبتهجاً برحيل "منصور" لأنه يعلم جيداً أن الرجال الذين يلتحقون بالجبهة لا يعودون منها إلا جثثاً مشوّهة بالرصاصة.

لقد أسرف أولئك الناس الطيبون في احتضانه بمشاعر دافئة، لكنه ليس من النوع الذي يراعي الأصول أو يحفظ الجميل.

هكذا راودته نفسه الأمانة بالسوء؛ أن يقطف من بستان "عوننا" وردةً يعلم أنها لن تنفخ بالشذى إلا لمن رعاها وسقاها بماء القلب.

"يجب أن يموت (منصور) أو يُستشهد، لا فرق!"، قال ثم وهو يمطّ شفّيته بابتسامة ماكرة.

- حينها ستخلو الطريق أمامي، وأطلب يدها.

صمت قليلاً ثم افتر فمه عن أسنان صدئة:

- سأتزوج "زهرة"، سأتزوجها، ولا يهم إن كانت تحبني أو لا تحبني.

طاف به الخيال، فتصوّر نفسه جالساً بالقرب منها، يناجيها فتبسم له.

التمعت دموعٌ في عينيه، إنها دموع الفرح التي ظلت محبأة منذ زمن بعيد في زاوية من زوايا قلبه الذي لم يعرف الفرح من قبل.

كانت الشمس تتوارى تحت الأفق البعيد مثل سفينة تغرق في البحر
وتتلاشى في أغواره شيئاً فشيئاً.

وحين طمس الظلام كل شيء كان "ود قمش" ينام ملء جفنيه
وفراشات الأحلام الجميلة ترفرف حوله.

كان البرد قارساً، والرياح تزجر مثل أسدٍ يتضور جوعاً.
تكوّم في فراشه وأسلم رأسه لأحلامٍ كثيراً ما راودته في اليقظة
وظلت عصية على المنال.

رآها تصرخ وتميل على رأسها التراب، تبكي وتلطم خدّها.
لم يحرك ذلك المشهد مشاعره الحقودة، فقد غادر العطف قلبه، أو
لعلّ العطف لم يسلكا طريقاً إلى قلبه المتحجّر يوماً ما.
ذكريات الطفولة البائسة ظلت محفورة في داخله، تورث سعيّر
الأحقاد وتجعله ناقماً على كل من حوله.

كان يؤلمه ويزعجه مشهدُ الأم التي تغدق على ابنها الحبّ، بينما
يظل هو يفتقد دفءَ العائلة وحنان الأم، فمنذ أن لامست قدماه
الأرض، وجد نفسه وحيداً غريباً لا يعرف؛ أمّن ثقب في السماء قد
هبط، أم من جُحْرٍ في الأرض قد خرج!

اهترأ السؤال على شفّته من دون أن يجيبه أحد، فقد أشاح الناس
عنه واكتفوا بنظراتٍ ملؤها الشفقة والرحمة.

نظرات لم تكن لِتُسَكِّنَ جراحه المشخنة، بل تزيدها ألماً.

لم يجرؤ أحد أن يقذف في وجهه جمرَ الحقيقة الحارقة، ربما مراعاة لمشاعره، فليس أفضح من أن يوصم المرء أو يُنادى بـ "اللقيط"، أو ربما تقديراً لذلك الشيخ الوقور "قمش" الذي كفله واحتضنه حين رمت أمُّ لا ترحم تحت أشجار "البلس"^٨ ومضت غير مكترثة، ربما لتعود مرة أخرى وتقطف من حقل الرذيلة بذرةً فاسدة تزيد بها قائمة التعساء شخصاً آخر يحمل سمات "ود قمش" نفسها، أو ربما يكون أشد حقدًا منه.

ظلت المرأة تبكي وتهيل على رأسها التراب.

تضرب صدرها بكفيها وتصيح:

"وا حسرتي عليك يا ابني الحبيب.. يا فلذة كبدي ويا...".

كثر العدد وازدادت حدة البكاء.

جاء سربٌ آخر من النائحات، حاسرات الرؤوس كنَّ وقد هَلَنَ

عليها التراب.

كنَّ يحملن السيوف ويضربن الدفوف، وقد تكفّلت إحداهنَّ

بارتداء ملابس المتوفي إحياءً لعادةٍ قديمة وتقاليد ورثتها عن أمهاتهنَّ

⁸ التين الشوكي.

وجدائقن؛ فحين يموت الرجل في مستقبل العمر وهو أعزب، يفعلن ذلك
تعبيراً عن اللوعة والحزن.

مشهد يبدو باعثاً للتأمل والضحك في آن، وإن انطوى في أعماقه
على مأساة.

– واي.. واي.. هوي، واي..

اقترب "ود قمش" بفضول أكثر.

أصاخ السمع، فتناهى إليه الاسم الذي يتمنى دائماً أن يجده في
قائمة الموتى والمفقودين:

– "منصور"، يا فارس القبيلة ويا ذخر الوطن، "منصور" يا ابن
الفارس المقدام، "منصور" يا...

في تلك اللحظات كان الموت جاثماً حول المكان، فقد امتدت اليد
الآئمة لتطمس معالم القرية وتمحوها من خريطة الوجود.

الموت الذي أوقد لهيبَ شرسته في ذلك اليوم، لم يستش أحدًا،
ولعل "ود قمش" كان أول من تشظى جسده وتفحّم مثلما تبخرت
أحلامه السخيفة وهو يعانق فضاء الغياب.

وبينما كانت "سعاد" هناك تلملم أشياءها استعداداً للعودة،
انشغلت "زهرة" بكتابة رسالة لـ "منصور" في الميدان، لكن إرسالها لم

يكن بالأمر السهل، خاصة أن "هدوراي" الذي لعب دور الوسيط بين الثورة والشعب قد ألقى القبض عليه، ولا يعرف مصيره أحد.

داهمها وحيّ الشّعْر، فاستبدلت القصيدة بفكرة الرسالة، وللمرة الأولى شرعت في التغزل بعيون الوطن:

"أحبك (عونا) وأهفو لأقطف ورداً من بستانك

أحبك (عونا) وأهطل غيماً على أهدابك

أحبك (عونا)... أحبك (عونا)... أحبك".

لن تكون الرحلة شاقة هذه المرة ما دام حلم العودة إلى "عونا" أصبح هو الحافز.. فقط يجب أن تنضمّ الفراسخ وتنطوي المسافات.

تدحرج "اللترينو" بهم والسعادة تغمرهم.

نزلت "عافيت" في أول محطة، فودّعتها "سُعاد" بدموعٍ سخية، وشيّعنها "زهرة" بنظرة حزينة.

"سأزوركم في (عونا) إن شاء الله"، قالت "عافيت" بثقةٍ مهزوزة، إذ لم تكن واثقة من إنجاز وعدّها في ظل العتمة التي كانت تلف حياتهم والخوف الذي ساد في ذلك العام تحديداً.

وعلى مشارف "حقّات" حين دوت صافرة "اللترينو"، دبّ النشاط في مفاصلهم، فبدأوا يتحركون وبشرثرون وقد انفرجت أساريهم.

"هنا دارت المعركة"، قال صالح في صوت خافت أقرب إلى الهمس.

"يُقال إنهم أبلوا بلاءً حسناً"، أضاف مزهواً لأنه كان أول من التقط الخبر.

صمتوا مبهوتين وظلوا يستمعون إليه.

- قُتل ثمانية من أفراد العدو وتكبدوا خسائر فادحة في العتاد، بينما لم يخسر أبطالنا فرداً واحداً باستثناء "عمر سيدنا" الذي أُصيب بشظية في عنقه، لكنه والحمد لله يتماثل للشفاء.

تحدث صالح كأنه شارك في تلك المعركة.

- كان "الكمين" مُحكِّماً، فقد باغتهم باتجاه "طنق اللحس" بحيث يكون الأعداء أسفل الهضبة، مما يسهل إصطيادهم، وهذا ما حدث فعلاً و...

حين نفذ مخزون الكلام وكفّ صالح عن الثثرة، هالهم ما رأوا عبر النوافذ في الأفق البعيد، حيث كانت أعمدة من الدخان الأسود الكثيف تتصاعد لتعانق السماء.

"إنها (عونا)"، صاح "إدريس نور"، " (عونا) تَحترق!".

وضعت "زهرة" كفيها على صدرها، وتمنت أن يكون ما تراه كابوساً أو حلماً عابراً، لكن الموت الذي يختار مَنْ نُحب وقتما يُحب كان يطوف حول القرية، وهكذا، كانت "عونا" حين وصلوا، قد استحالت رماداً تذرّوه الرياح.

لم تحمل "سعاد" المشهد، فجعلت تصرخ وتصرخ حتى أُغمي عليها ولم تعد تعي ما يدور حولها.

أما "ود حاج" المصاب بداء القلب، فقد شهق شهقةً واحدة ثم طاح على الأرض كجثة هامدة.

وحده صالح كان ثابتاً هادئاً، يدعوهم للتماسك والصبر، لكنه حين تذكر ابنته "نورة" ذات السنوات الخمس لم يتمالك نفسه، فانفجر باكياً.

أما "زهرة" فقد بدا لها ما حدث كأنه لا يتعلق بها ولا يعنيتها بشيء، فلا حزن ولا أسى.. لا بكاء ولا نحيب، ولا أي مشاعر من أي نوع. اكتفت فقط بالتحديق بذلك العالم الذي ينهار بعد أن كان يمثل لها كل الحياة.

آلاف من الذكريات والتفاصيل الجميلة مرّت أمامها في شريط متتابع وعرضٍ دقيقٍ لم يُخفِ حتى التفاصيل الصغيرة واللمحات العابرة في حياتها:

أمها التي كانت تغدق عليها الحب والعطف؛ إخوتها الصغار حين ينتظرون قدومها من العمل ويصرخون بصوتٍ واحد: "زهرة، زهرة"، فتدس يدها في جيبتها لتضع في أياديهم الصغيرة "حلاوة محرقى" المصنّعة في أغردات؛ "منصور" الذي علّمها أبجديات الحب لهذا الوطن الجريح،
و....

يا للهول! لقد تلاشت "عونا" من خريطة الكون ولم يبقَ منها شيء
سوى الرماد.

كأنما تبخرت وتصاعدت دخاناً أو بخاراً فوق قبة السماء!
ارتدّت الفراشات ثوب الحداد وما عادت قطرات الندى الرقاق
تلثم خدّ الزهر، فقد خمدت روح الحياة في كل شيء، وعلا صراخ
الفجيعة ليعلن النهاية.
حتى طيور الحبارى غادرت أوكارها، واكتست أزهارُ الياسمين لونَ
الرماد.

وزحفت الشمس ببطء خلف الروابي، منكسرةً حزينة، كأن
الفجيعة طالت سناها فبزغَ باهتاً شاحباً يعتوره غيش واكفهار.
الموت الأسود أطبق على الوجود جناحين من فولاذ، واستنَّ
الربع سيفَ البطش لينتهي كل شيء في نحةٍ بصر.
كيف لا، وقد نصب القُساة كميناً أمام كل وردة، ودسّوا الألغام
تحت الزنابق!

رَكَتْ "زهرة" بنظرها نحو القرية المكلمة، ثم نظرت باتجاه الربوة
الناثئة كحدوة الحصان عند أطراف القرية حيث بدا الدمار مفجعاً.
أشاحت بصرها ثم دخلت في دوامة الدهول مرةً أخرى.
"هنا كانت تلعب نورة"، قال صالح والدموع تنهمر من عينيه
مشيراً باتجاه الربوة.

أما "سعاد" التي أفاقت من الغيبوبة، فقد أصابت جسدّها ارتجافاً وهي تتجول في ساحة الموت.

ران صمتٌ، ولم يحرك أحد ساكناً مكتفين بالذهول، ولم يكن من صوتٍ سوى نباح الكلاب التي نجت من الحرقّة.

"إدريس نور" الذي كان الأكثر تماسكاً، بدأ يفقد اتزانه وينهار أمام فداحة الخنة وهول الكارثة.

وضع يديه فوق رأسه وندتُ عنه صرخةٌ خرجت من مكانٍ سحيق في أعماقه وقد جحظت عيناه اللتان ظلّتا مثبتتان إلى أسفل الصخرة التي كان يجلس فوقها.

وحين نظروا إليه مستفهمين، أشار بيده إلى حفرةٍ صغيرة تحت الصخرة حيث كان يرقد "فرج نوراي"، شقيق "منصور" الأصغر، جثةً قضمها الرصاص كما يقضم الجرادُ أوراقَ الحقل.

لقد أفلت المسكين من الموت حرقاً، لكنه لم ينجُ من رصاص "الكوماندوس" الذين تربّصوا بكل من يمشي على قدمين.

استندت "زهرة" على كتف "صالح"، ثم نظرت إلى الأسفل، فانداح في دواخلها ما يشبه الزلزال. أما "سعاد" التي تعودت أن تواجه المواقف الصعبة بالانهيار وفقدان القدرة على التصرف، فقد ظلت في مكانها ترتجف كضوءِ شمعةٍ في مهبّ الريح.

"إكرام الميّت دفنه"، قال صالح، ثم شرع في الحفر بعصاته الغليظة، بينما أخذ "إدريس نور" يجهّز بعض الأخشاب والحجارة لإخفاء الجثة حتى لا تنبشها الكلاب.

انتهى صالح من تجهيز القبر، فوضعوا الجثة ثم قرأوا عليها القرآن وترحموا على الميت قبل أن يستعدّوا للرحيل.

"يجب أن ندخل (كرن) قبل حلول الظلام"، قال صالح، ثم بدأوا المسير.

قبل أن يهبطوا من التل المطلّ على القرية التفتت "زهرة" لتلقي نظرة الوداع على المكان الذي دُفن فيه حبلها السّري ثم حزمت أمتعتها وأكداساً من حطام الذاكرة الجريحة التي سترافقها كالظل مهما امتد بها العمر.

حين رنت من قمة "لالبا" إلى المدينة القابعة أسفل الجبال التي تبدو كما لو أنها تستعد للرحيل، انساب في قلبها إحساسٌ بأن ثمة منعّصات كثيرة تحجب جمال هذا الوطن.

"كرن" مدينةٌ تصارع الموج وتبحر عكس التيار، وهي في خضم هذا الصراع الرهيب لا تنفك باسمّة الثغر، وإن بدتْ حزينة العينين.

حين بدأ المساء الحزين يتغلغل في ثنايا المدينة كانت "زهرة" تهيم في الطرقات على غير هدى.

"ها هي ذي جحافل الظلام تُسدل أستارها القائمة من دون اكرات
لامرأة ينوء كاهلها بالأحزان"، قالت كأنها تتحسر على عدم مطاوعتها
لـ"سعاد" التي دعته لمرافقتها إلى أهلها في "وازننت" المستلقية على
ضفاف أودية ترفدها القمم الشاهقة بمياه الأمطار الغزيرة في فصل
الخريف.

بدأ الظلام يطبق أهدابه على الطرقات، وتلفح الكون أغنية حزينة،
فنمت في صدرها وحشة، وأخذت تتسلى بالنظر إلى الغيوم التي كانت
تركض في السماء.

هطلت دموع الحزن من عينيها وجلست تبكي على نفسها وعلى
الآخرين الذين تفقدتهم الواحد تلو الآخر.

لم تكن تعرف أحداً في تلك المدينة الواسعة سوى العم "عتيل" الذي
حدثها عنه "منصور" ووصفه لها بأوصاف جعلته يكبر في نظرها ويبدو
أسطورةً موعلةً في الخيال، فتمنت أن تكحل عينيها برؤيته.

سارت في الطرقات وفي قلبها أمنية واحدة؛ أن تجد من يدلّها عليه.
"حقاً إنه إنسان خرافي، يستحق الثناء والإعجاب، ذلك الذي
يغامر بحياته وقوت أبنائه وتجارته الرابحة لأجل الوطن"، قالت بينما كان
الشوق يستبدّ بها لملاقاة الرجل الذي وجدت فيه طوق النجاة والمخرج
الوحيد من مأزقٍ قذفتها فيه أقدارٌ مشؤومة.

خلت الطرقاتُ من الناس، وعمّ سكونٌ تحترقه بين الفينة والأخرى
زفراءُ السكارى وضجيج الموسيقى الصاخبة التي تبعث من الحانات
المرصوفة وسط المدينة.

يا لخبث الأوغاد، فقد عمدوا إلى تحييد الشباب بإغراق المدينة ذات
الطابع المحافظ في بحرٍ من الخمر، تماماً كما فعل الإنجليز بقبائل
"الأبوريجنال" في أستراليا.

"سنجعل من هذه البارات القميئة رياضاً للأطفال أو مستشفيات
للمرضى، يوم يخرج هؤلاء الغرباء عن أرضنا"، رددت في سرها وهي
تجول شوارع المدينة.

أعيانها البحث حتى تورّمت قدماها من المسير، فجلست تحت المبنى
المطل على "جيرا فيوري"⁹ ترقب الطلّ النديّ، المنداح بين مسام الروابي
الحيطة بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم.

تقاطرت السحب وزحفت بكثافة لتغطّي سماء المدينة ويغمّ الظلام.
ضجت في أعماقها بحورٌ من الأشواق، فتمنت أن ترجع بكرة الأيام
الفهقرى، لا لتعيد ترتيب الأحداث أو تشيها عن تفريخ النوازل
والأهوال التي ظلت تحاصرها. كلا. فقد نشأت "زهرة" في بيت تحفّه
الملائكة ويظل عرشه القرآن، وكثيراً ما رأت والدها يواجه عشرات

⁹ تعني باللغة الإيطالية: دائرة الزهور.

الأيام وخطوبها بالرضى والابتسامة وهو يردد: "الحمد لله على كل حال.. الحمد لله على كل حال".

لكنها كانت تجد وسط تلك الأهوال والزلازل مَنْ كان يبسط لها يداً تقودها إلى برّ الأمان، فأين منها تلك اليد الحانية؟

شعرت بالغثيان والتعب يسري في جسدها كله، فاتكأت على جدار "بلاسربيا"¹⁰ ونامت وصورة والدها الذي كان نبعاً من حنان، لا تفارق عينيها.

لقد ارتبط الليل في مخيلتها بالوحوش التي تعيش في الغابات الكثيفة ثم تمجم في الظلام، فقد قتل الأوغاد والدها في جنح الليل، وقد رأت بعينيها فرسان قريتها يُعذبون بأيدٍ لا ترحم في بيوت الأشباح وسمعت آهاتهم تخترق سكون الليل، وها هي ذي تواجه الظلام بمفردها، فما أشقاها.

أخذت تخطط الطرقات ذهاباً وإياباً من دون توقُّف لتطرد الخوف والملل.

وحين أطل الصباح بوجهٍ خجول، لم تستطع شمسه أن تبعث الدفء الذي يمكّنها من تحريك أصابعها التي كادت تتجمد من شدة البرد، فجلست متهالكة يُغالب عينيها النعاس.

¹⁰ فيلا نُسبت لمالكها الإيطالي "ربيا".

غفتُ لبرهة من الزمن واستسلمت للنوم متكئةً على جدار أحد الأبنية العتيقة وسط المدينة.

أطل طيفُ أمها ذات الوجه الصبوح وقد بدت واجهةً تنظر إليها في صمت كأنها لا تعرفها.

هرولت "زهرة" باتجاهها مسرعةً ونار الشوق تتأجج في دواخلها وفي نفسها توق للعناق، لكنها فوجئت بما تبعد عنها خطوتين كلما اقتربت منها خطوة.

هكذا أخذت تبعد عن أنظارها مثل كرز المغيب حين يتلاشى قرصُ الشمس في الأفق البعيد ويتوارى خلف الغياهب المظلمة.

يا له من حظّ تعيس حين يستحيل عناقُ الأحبة حلماً تترصد مسالكهُ تضاريس وعرةٌ وحواجرٌ من الأمواه والضباب.

ولكن قبل أن تتلاشى صورة أمها التي برزت أمامها بسحنةٍ عبثَ الشقاء بما أيما عبث، حانت منها التفاتة، ثم رمت على كتفها "شالاً" مطرّزاً بألوان زاهية، دعته أن تتدثر به من الصقيع القارس، ثم ذابت في الفضاء مثل سحابةٍ عابرة.

انتفضت "زهرة" لتجد نفسها في قلب المدينة التي بدأ أهلها يتوافدون من جميع الأطراف إلى أسواقها العامرة بالمنتجات المحلية الخالصة.

تداعت أمامها الذكريات وتقهقرت بها الأيام إلى الوراء حين كانت صغيرة تدرج ببطء في دنيا الطفولة والبراءة.

في ذلك الصباح الشتوي البارد حين التصقت بجدهما وهي ترتجف وأسنانها تكرر من شدة البرد، فدخلت عليهن جارتهم الحسنة "زينب" التي سألت جدتها تفسيراً لحلم مشابه:

- رأيت في المنام زوجي المتوفي قبل سنوات وقد رمى على كتفي ثوباً جميلاً، ثم انصرف من دون أن ينبس!

"ويحك.."، قالت الجدة وهي تغرز عينيها الحادثتين في وجه "زينب" التي ارتعدت من الخوف لاعتقادها الراسخ في صلاح تلك المرأة العجوز، وقرها من الله.

"أرجوك أخبريني، ماذا يعني ذلك؟!"، قالت "زينب" وهي تبكي وترتجف من شعر الرأس إلى راحة القدمين.

بدا الذعر واضحاً في وجهها، وكانت أسنانها تصطك من الخوف، فجثت على ركبتيها وجعلت تقبل المرأة العجوز وتستدرّ عطفها، وترجوها أن تتلطف في استنباط تفسير يكون أقل كارثيةً من ذلك الذي رآته في عينيها، وسمعت زمجرة وعيدٍ في كلمة "ويحك" التي ليس بعدها سوى الطوفان.

تكلّفت الجدة كثيراً لتخفي صرامتها المعهودة، وكست وجهها بابتسامة نابعة من قلب مفعّم بالشفقة والعطف، لكنها لم تكن مستعدة أن تنساق إلى آخر خطّ في مشوار العواطف وتكسر قيود التأدّب في حضرة "المقدسات"، وما تفسير الأحلام الذي ورثته عن أجدادها إلا جزءاً من تلك المقدسات كما تعتقد.

وهكذا حاولت أن تغرز النصل من دون أن تتألم الضحية، تماماً كما يفعل الجزّار حين يخفي السكين عن الشاة قبل أن يطرحها على الأرض ثم يذبحها من الوريد إلى الوريد.

"ليس بالضرورة أن يكون تفسيري لهذا الحلم صحيحاً، فقد أكون مخطئة والعلم عند الله"، قالت الجدة ثم انبرت تفسّر لها ذلك الحلم المزعج: "لقد دعاك زوجك إلى القبر، وما الثوب الذي رماه على كتفك سوى الكفن!".

لم تكرر سبحة الأيام كثيراً بعد ذلك، فقد استيقظت "زهرة" ذات صباح حزين على صراخ نسوة يبكين "زينب" التي ماتت على فراشها من دون أن تشكو مرضاً أو عارضاً.

سحّ الدمع من عينيها مدراراً، وبكت من دون أن تدري؛ أتبكي نفسها أم تبكي جارها، لكنها على كل حال لم تكن خائفة من الموت، فهي الآن تنظر إلى حقيقته برؤية محايدة، فسيان عندها الموت والحياة،

بل إنها قد نذرت نفسها لموتٍ لائقٍ.. موت تعقبه حياة كريمة وعزة
لوطنٍ ألهبت ظهره سياطُ الغدر وتكالبت عليه الخن.

لم تكن "عونا" وحدها التي تسرّب حفيفُ الظلمة في أضلاعها،
وشرختها عاتيات الخن وقسوة الطُّغاة، فقد امتد الجرح وانتشر في كل
شبر من الوطن، وتكسرت الأنصال على الأنصال، واقتسم الناسُ
الحسرة التي بدت في عيونهم.

ظل النصل يتزّ دماً، والتمعت وجوه القتلى على حوافه كشاهدٍ
على المأساة.

هناك في "قندع" كانوا على موعد مع شرٍّ مستطير وحُزن يدسّ
ملح الحسرة في القلوب.

ذات ليلة شتوية باردة، رانَ صمت رهيب، فلم تكن تسمع غير
همهمات الجنود وتحركاتهم بين القبنة والأخرى وهم يمشطون المدينة
التي لفّها الخوف والترقب.

كانت الرياح تزجر بين الأشجار وتطلق صفيراً كالنواح.

لم يتجرأ أحد ويخرج من منزله ليستطلع ما يحدث في الخارج، فقد
كانت التحذيرات واضحة، والكل يعلم ما تعني كلمة "كبرفكو"¹¹ في
قاموس الجيش البربري الغازي.

¹¹ تعني باللغة الإيطالية: حظر التجوال.

"كأنهم يدهمون منزل (حليباي)"، همست زينب لزوجها.

"لطفك يا رب"، قال زوجها ثم أسرَّ في أذنها:

- كل الوثائق موجودة معه، أرجو أن يكون قد تخلص منها.

لم تفهم زوجته ما يقول، كل ما أقلقها ألا يفكر زوجها في الخروج ويتركها وحدها في الظلام المخيف.

دوت صرخة مكلومة شقت جدار الصمت، أعقبها نباح كلاب في أطراف الحي.

عمَّ الصمت مرةً أخرى، فنهض "هاكين"، ثم نظر عبر النافذة وأطل برأسه خارج المنزل وأخذ يصغي.

اختلطت أصوات الجنود بكاء الأطفال ونباح الكلاب.

تمتم بآياتٍ من القرآن، ثم همَّ بالخروج، فتعلقت به زوجته وصاحت بصوتٍ واهن وهي ترتعد من الخوف:

- كيف تتركني وحدي في هذا الظلام الدامس؟

- دعيني أذهب لأرى ما يحدث، فليس من المروءة أن يواجه

"حليباي" الموت وحده، بينما ننعم بالدفع والأمان في بيوتنا.

استل سيفه وانطلق وسط العتمة الكثيفة، وجعل يسرع الخطى متمنياً أن تخيب ظنونه حتى لا تخسر "قندع" رجلاً بقامة "حليباي".

"ستحل بنا الكارثة إذا ضبط الأوغاد الوثائق التي يحتفظ بها"، قال

وهو يشق طريقه مسرعاً باتجاه منزل "حليباي".

تتابعت الأفكار السوداء والاحتمالات المخيفة في مخيلته:

- إذا حدث ما أتوقَّعه لا سمح الله، فهذا يعني أن "قندع" ستشيع غداً خمسة وعشرين رجلاً وثمانية نساء أسماؤهم مدونة في كشوفات الاشتراكات الشهرية إلى مثوالم الأخير!

- رباه، ما الذي تخبئه لنا الأقدار!

كان "حليباي" كالدفق الهادر في عطائه، يتسم بالترهة والجرأة وحضور البديهة وكل الصفات الجميلة التي جعلتهم يُجمعون عليه ويزكّونه ليتشرف بمنصب "أمين السر" لخلية "قندع".

داهم الجنود المتزل وعاثوا فيه فساداً.

- فثَّشوا جيداً، انبشوا كل شيء ولاتركوا خُرم إبرة، قلبوا هنا وهناك و...

كان الضابطُ زائغُ العينين يأمر جنوده ويصيح فيهم ويده على الزناد!

"لقد تأخرتم قليلاً أيها الأوباش، وما كان (حليباي) ليمنحكم بهذه البساطة مبرراتٍ تُزيّنونها وجوهكم الكالحة وأنتم تقتلون الأبرياء بدم بارد"، قال "حليباي" وهو يرمي بكل ما معه في المرحاض ثم وقف أمامهم شامخاً كالطود.

ولكن من يطفئ لظى الحقد الدفين في قلوب أولئك الأوغاد الغرباء؟

- إذن أنت "حليباي"، أليس كذلك؟

"بلى.."، قال "حليباي" الذي لم يندُ عنه ما يوحى بأنه خائف أو

مرتبك.

- أين كنتَ تقابلهم؟

- من هم؟

- "الشفة"!

- أقسم بالله أنني لم أقابل أحداً من "الشفة" منذ أن خلقتني الله.

لم يشعر "حليباي" بالذنب، لأنه لم يكن يكذب، فقد كان يتعامل

مع "الجبهة" وليس "الشفة" كما يعتقد ذلك المعتوه.

"أنت تكذب"، قال الضابط وهو يصكّ أسنانه غيظاً لشعوره بأن

أمانيه تتلاشى في أول مهمة له منذ أن جاء من خلف الحدود مُنمياً نفسه

بتحقيق الكثير من الأحلام التي وعدوه بها والتي يراها تتبخّر أمامه

الآن.

- عفواً سيدي، فأنا والله لم أكذب قط، وثق أن ما أقوله لك هو

الحقيقة التي تنسدها، فأنا لم أرَ أحداً من "الشفة" في حياتي أبداً.

تمتم الضابط ببلغة غريبة وهو يشير إليه وفي وجهه ثورة غضب

وهياج، وخلال لحظات قليلة كان "حليباي" يخلّق في فضاء الغياب

الأبدي لتزفّه "قندع" كلها فجر اليوم التالي في موكب مهيب.

حملتهُ الجموع الغاضبة على الأكتاف إلى مشواه الأخير، وهناك على حافة القبر تعاهدَ الشباب ألا يعودوا إلى المدينة.

وهكذا قبل أن يجف الدم الطاهر كانوا قد التحقوا بـ"الجهة" وانخرطوا في صفوف المقاتلين.

كانوا خمسة وعشرين شاباً، فرح القائد بقدمهم ورحب بهم على طريقته الخاصة قائلاً:

- مرحباً بكم في جبهة التحرير الأريترية، هذه الجهة هي مصنع الرجال والعزة والكرامة، فمن لا يأنس في نفسه كفاءة الرجال حين تستخدم المعركة وتزأر المدافع أرجو أن يعود فوراً إلى أحضان أمه! صمت قليلاً ثم استطرد وهو يرم فتلات شاربه الطويل كأنه يستفز رجولتهم:

- لكن أيها الشباب، تذكروا أن الأمهات في "نقفة" و"أغردات" و"كرن" قد وهبنَ الوطنَ أغلى ما يملكنَ في الوجود.

"انظروا هناك"، قال وهو يشير إلى ممر ضيق أسفل الجبل، حيث كانت مجموعة من الفتيات يتلقينَ التدريبات الخاصة باللياقة البدنية وتحملُ المشاق.

- معنا هنا "آمنة" و"سعدية" و"زينب" يقاتلنَ الأعداء الـ.....
دوت ضحكة جماعية بددت صمت المكان وسكونه.

وجدَ شباب "قندع" أنفسهم أمام قائد كثيراً ما سمعوا عن بطولاته ومواقفه الطريفة، وكم تندرُوا بها في مجالسهم الخاصة بعيداً عن مجالس النساء، وها هم الآن يضحكون من أعماقهم مجرد كلمة نابية وصف بها الأعداء.

يُقال إن ذلك القائد الذي تكسو الصرامة وجهه، كان يباليغ في التجهم والجدية، وقليلاً ما كان يبتسم، أما ضحكته فذلك حدثٌ أندر من مطر الصيف.

لكن ربما كان ذلك اليوم استثناءً في حياته العسكرية، فقد افترت شفتاه عن أسنان بيضاء ناصعة وهو ينظر إلى أبنائه يجلسون بالضحك ويبدون حماسةً لمنازلة الأعداء.

— يا أولاد!

عاد "أبو شنب" إلى فطرته العسكرية الصارمة صارخاً في وجوههم، فعمّ الصمت كأن على رؤوسهم الطير.

— هذا هو المناضل الذي سيتولى مهام تدريبكم على استخدام السلاح وغير ذلك من المهام القتالية.

— إنه أحد أبطالنا الذين يصنعون المعجزات في المعارك ولا يخرجون منها إلا بنصيب الأسد.

— "منصور نوراي" الذي نفذ العملية القذائية الجريئة في "هيكوته"، فقتل اثنين من جنرالات العدو الذين ارتكبوا أبشع المجازر في "عونا" و"حرققو" و"أغردات".

- هل تعرفونه؟

- إنه.....

بينما مضى القائد في شحذ الهمم وتحفيز جنوده على الاستبسال ومقارعة العدو، كان منصور "يتمنى" أن يُنهي قائده حصة التعبئة كما كانوا يسمونها، فقد كانت تمر بداخله آلاف من الذكريات والصور البهية.

ذكريات من حفرت رموشها فهراً من أمنيات، وانطبعت في قلبه، ثم مضت مستعصمةً ببعده يعلم أنه سيطول.

هي أيضاً كانت تحبس بذلك، فقد همست له ذات يوم بعيد وهي تدفن حزنها في ابتسامةٍ محايدة وتغرز عينيها بعيداً صوب اللازورد:

- ستجد من يحبك أكثر يا "منصور"!

لم تشأ أن تقول له:

- سنفترق إلى الأبد.

بالطبع، لم تكن "زهرة" عرّافة تقرأ الطالع مثلما كانت جدتها تفعل، لكنها كانت تتوقع ذلك، إذ لم يكن يسطع في أفق أحلامها نجم أو بارقة أمل.

"ستجد من يحبك أكثر".

عبارة مرّت على مسامعه يومَ ذاك كهفهفة النسيم من دون أن
تخدش عواطفه أو تحرك في نفسه هواجس العشّاق، لكنه اليوم يبدو
كمن استعاد ذاكرة مفقودة، يحاول أن يرمم جسراً آيلاً للسقوط!
تلك لحظة رسمت ملامحها في ذاكرته وانطوت في أعماقه كجرح
يأبى أن يندمل.

ما كان يحسبه دلالَ المحبين باتَ يتجسد أمامه واقعاً مريراً يلمسه
ويحسّه، فقد طال الفراق من دون أن تلوح على حواف الأفق تبشير
يوم سعيد يطفئ جمرَ المسافات والسفر الطويل.

كم قست عليه الأيام وكم قهرته المحن!
لقد ترمّدت جمرات الحجارة وهوت على رؤوس أهله في "عونا":
مات شقيقه "فرج" الذي كان يحبه حباً لا يُضاهى، دُفنت أمه وشقيقته
تحت ركام البيت القديم وتفحمت جثث من بادهم حباً لا نظير له.
إنه الحزن الذي أمسى يحفر في تجاويف قلبه ندوباً ويغوص عميقاً في
جسدٍ متهالكٍ، هدّته التباريح والحن.

ولكن لا بد لـ "منصور" أن يتوقف قليلاً ويمعن النظر هناك في نهاية
النفق المظلم، حيث تشع ومضة يتألق بريقها حيناً ويخبو حيناً آخر.
تلکم هي "زهرة" التي تطلّ في دربه الكسيح بكل رونقها وبهائها
وسط ذلك الموات، فتنفرج أساريه حين يساوره إحساس قوي بأنها لم

تكن ضمن قائمة المغدور بهم في تلك الجزيرة الغاشمة، فيلوذ بالحروف
يذرفها شعراً يسيل من قلب مفعم بالشوق والوله:
"رفقاً بمن رام الوصال عُد أيها الظل الندي
عُد يا ربيع العمر من سكة السفر الطويل
بَلَل يباسَ الشوق، غادرَ محطات الرحيل
جمرُ المسافات القصية حارق،
والليل حين يطبق بأهداب الدُّجى،
ويكحلّ الحزنُ رموشَ الأمنيات
قل لى بربك:
كيف أمضي في هذا الظلام؟".

لقد جاء "منصور" إلى الدنيا على سهوة جياذ عرجاء، ضارباً
أوتاده بين تيهٍ وسراب، فقد ولدته أمه طفلاً منذوراً للشقاء، ولم يرمش
جفن الكون لقدمه، ولم يحفل به أحد، إذ كان الجميع سادرين في
محتهم، وكان الظلام يغسل وجه الأرض بسوادٍ حالكٍ، وكان الحزن
يتمدد فوق هاتيك الربوع حين أطلق صرخته الأولى معلناً حضوره
المتعثر.

كل شيء كان متشجاً بالسواد يومَ أطل برأسه المستدير وعينه الغائرتين، فلماذا يندب حظه؟

بينما كان يقلّب أوراق حياته البائسة ويتصفحها، كان الألم يحفر بأظفاره الحادة ويغوص عميقاً في دواخله فيُحدث فيها خدوشاً مؤذية. تأوّه وهو ينظر بعيداً في صفحة الأفق الموشح بالبياض، فطالعه صورهما المثبتة على الأفق وهي تبتسم له في صمتٍ مهيب.

كان يكفيه أن تتقافز صورهما كال موج على شواطئ ذاكرته ليحسّ بوجوده، فقرر أن ينبذ حزنه ويللم شظايا نفسه، فأطال النظر إلى صفحة الأفق حيث ترتسم صورهما البهية وتتضافر عناصر الطبيعة لتحلّق به على أجنحة النوارس المرتحلة إلى جزرٍ يتيه فيها الأسى ويتلاشى الحزن تحت غيوم تفيض جمالاً وروعة:

نثيث المطر وأقواس قزح، حفيف الأشجار وشقشقة عصافير البلوم، هفهفة النسيم الهادئ، وتقاطيع وجهها المسربل بالحزن الشفيف...

حين ترنّ أجراس الحنين في أذنيه يبدو كأنه يسلك طريقاً سرمديةً يجهل مخاطرها، فيحس بالتيه والضياع والأسى.

هنالك تطل "زهرة" كقبسٍ من أمل يجدد في نفسه روحَ البقاء، والرغبة في المضي قدماً رغم وعورة الطريق وخطورة المسالك.

هكذا تدنو منه برهةً، ثم تغادر تاركةً خلفها حزناً يجثم فوق صدره.
لَمْ تَلْحُ تلك الصبيّة يوماً في أفق حياته كأنشى يشتهيها، بل تجسدت
فيها المعاني والأحلام التي كانت ترفّ في عينيه كعصافير الخريف
النشوانة بالفرح والحبور، فـ"زهرة" هي "عونا"، وهي الزمن الجميل..
هي ذكريات الطفولة، ومراتع الصبا، ولحظات النشوة والانبهار.
"ثرى، أيّ مصير قد حلّ بها؟"، تساءل وهو يلوك لبان الحسرة
والأسى.

إنها هناك تكابد مثله الجور والضنك وعذابات الأيام المرهقة، لكنها
ستصمد حتى النهاية.

نعم، ستصمد، وستجعل نصب عينيه ذلك الوعد الجميل، وتلك
المقولة الماثورة التي خصّها بها ذات يوم بعيد:
"لقد تعلّمنا من أشجار (العركوكباي) أن نقف على الجرح ونخوض
لهيب المسافات بصبر وجلد".

اختفى "عتيل" عن أنظارها، ولم يتطوع أحد لإرشادها، فقد كان
الخوف يسري في النفوس، خاصةً بعد العملية الفدائية التي نفذها "ود
كدان" وسط المدينة ضد أحد أشرس جنرالات العدو.
نظر إليها صاحب الصالون الأنيق شزراً حين سألته عن "عتيل"، أما
آمنة بائعة الأواني المتزلية فقد حدجتها بنظرة قاسية كأنما تأمرها بمغادرة
المكان.

كان الرعب يُسدل غلالة كالحلة ارتسمت فوق الوجوه.

جلست تحت المبنى العتيق تتساءل بحيرة عما يحدث.

توهجت السماء بطلائع الشمس الزاحفة ببطءٍ من خلف التلال
البعيدة.

طلوع الشمس كان يعزز الأمان في نفسها ويبعث الأمل فيها، أما
الظلام فهو عدوها المقيت، ففيه طرق البرابرة القساة بابَ مترها ذات
ليلةٍ مظلمة ليسرقوا منها والدها الحبيب.

ابتسمت لطلوع الشمس كما يبتسم التائه في الصحراء عندما
تلوح لناظريه خضرةً الواحات.

نهضت من مكانها وسارت على غير هدى من دون أن تحدد وجهةً
للمسير.

كانت تتلفت وتُرهِف السمع وتتلصص بعينيها على الناس تماماً
كما يفعل البدوي حين يدخل المدينة للمرة الأولى.

كادت تفقد الأمل، فقد كان كل شيء هناك يسير على نحوٍ
اعتيادي، ولم ترَ أيَّ مظهر من مظاهر التملل أو التمرد كما كانت
تتوقع وتتمنى.

لكن فجأة، انقلبت الأمور رأساً على عقب، فانتشرت الفوضى في
جميع أرجاء المدينة.. من "بلوك أسمرّة" إلى قمة "إيتعبر" مروراً بقبة
"سيدي بكري" حتى "وادي دعاري"!

- ما الذى يحدث؟

تساءلت من دون أن يجيبها أحد، فالكل كانوا يتساءلون مثلها
بفضولٍ عمّا يجري.

ركضتُ مثلهم باتجاه محطة البترول (أجيب)، ثم عرّجت جنوباً إلى
مقابر "الطليان".

تحوّلت السيل البشري المتدفق إلى الميدان المحاط بأشجار البان،
فزحفت معهم إلى هناك.

اصطف الجميع وغلالةً من الحزن تسربل وجوههم.

كان الضابط القميء ذو الوجه المنقور بالجدري يصرُخ ويندد
باللغة التي ييغضها أولئك المتجمهرون حول الميدان:

- هذا الخائن ظل يدعم "الشفقة" المخربّين ويرسل لهم الطعام مع
ابنته الصغيرة، وقد ظن أنه سيفلت من قبضتنا!

لم يمنعها الإجهاد والتعب من أن تراحم الناس وتجد لنفسها مكاناً في
الصفوف الأمامية قريباً من المقصلة التي كانت تتدلى منها جثةٌ من زعم
ذلك الوغد أنه مخرب.

"زهرة" التي تعوّدت على جلافة الحياة وقسوة الأقدار التي حرمتها
في غمضة عين كل أفراد أسرتها وأهل قريتها الحبيبة، لم يمر عليها ذلك
الحدث مروراً عابراً، فقد ارتسمت صورة ذلك الرجل المصلوب في
عينها وانطبعت في قلبها جرحاً ظل يترّف ويترف، خاصة بعد أن

علمتُ أن ذلك المصلوب أمامها ليس سوى "عتيل" الذي تكنّ له
الود، وتبحث عنه كما يبحث الظمآن في عمق الصحراء عن قطرة
ماء.

إنه مسمار آخر، لكنه ليس الأخير يُدق في نعش أحلامها التي ما
إن تبت وتفتح كأزهار الياسمين حتى يسلّط الله عليها آفات تجتثها من
منابتها.

هكذا تنطلق سهامُ الغدر دوماً لتشكّ نصالها كلما نثر الزمان
زنايقَ في درب "زهرة"!

غاصت مرة أخرى في يَمّ أحزانها وعادت بها الذكرى إلى الماضي
البعيد.. إلى ذلك اليوم الفاصل في حياتها حين قررت أن تلتحق
بالثورة، ودفنت وجهها في صدر أمها وهي تقاوم رغبة للإفصاح عن
حلمٍ ظل يراود مخيلتها، من دون أن تؤذي أمها المريضة التي تجد فيها
آخرَ خيط يشدها للبقاء على قيد الحياة.

هكذا يعود طيف أمها ويتراقص في بؤبؤ عينيها كلما رمى الدهر
شوكاً في طريقها.

— ما بال القمر يبدو حزينا، شاحباً هكذا!

ما انفك الصوت العذب الجميل يترجرج في أذنيها لينتشلها من
وهدة الخوف والإحساس بالضياع كما ينتشل الليلُ خيوطه المظلمة
عند انبلاج الفجر.

لم تتردد هذه المرّة في الإفصاح عن رغبةٍ كبرت في دواخلها وقد
حان أوان المخاض:

- سأنضم إلى جيش التحرير لأناضل ضد هذا العدو الذي يجثم
فوق صدورنا!

رددت بصوتٍ مسموع، ثم أفاقت من قفوتها لتجد نفسها وسط
الجموع الغاضبة تسير ببطءٍ مثل حمامة مكسورة الجناحين.

لقد سُدت أمامها كل المنافذ، واستحال الكون كله كثقوب إبرة أو
كأسوار مشيدةٍ بحجارةٍ صلدة تحُول بينها وبين العيش في وطنٍ تحبه
حتى النخاع.

"لماذا تستحيل الأوطان مثل السراب، نلهث خلفه فيبتعد عنا
خطواتٍ كلما اقتربنا خطوة منه؟!"، تساءلت بحرقّةٍ من تحطمت
أحلامها وتلاشت أمنياتها العزيزة.

- ولكن هل انتهى كل شيء؟

عادت إلى تساؤلاتها.

- وهل تفيد الحسرةُ والندمُ هذا الوطنَ المكبَلَ بالقيود؟

- علينا أن نفعل شيئاً، بل يجب أن نفعل كل ما في وسعنا قبل أن

يبتلعنا هذا الوحش الكاسر.

لملمت أشلاءها وبآخر نفس من قواها الخائرة مشت تترنح في
الطرق الكئيبة وسط المدينة.

ظلت المدينة التي تنكئ على حاضرٍ شاحب ومستقبل مجهول،
غارقةً في صمتها. ذلك الصمت الذي يعقب الخيبة والإحساس
بالضياع والتلاشي.

كأبة لم تشهدها تلك البقعة التي جُبل أهلها على الفرح والمسرات،
فكل شيء فيها اتشح بجزنٍ طفح به الكيل حتى فاض.

صمتٌ لم تجرح سكوته سوى تراتيل الدرايش وأصواتهم التي تعلقو
وتخفت وتتموسق بأحانٍ فيها من الشجن ما يحاكي بؤسهم وأحزانهم
التي يفرّون منها إلى حضرة المصطفى:

"صلّوا عليه، صلّوا عليه.."

صلّوا على النبي، صلّوا عليه."

أصواتهم تعلقو وتجر بالنداء الذي يخرق أحشاء الليل.

أرخت أذنيها، ثم مشت باتناد مصغيةً إلى الأصوات التي كانت
تقودها إلى قبة "سیدی بکری".

هناك وجدت عالماً آخر غير الذي تعرفه، فمشهد زوار الصريح
يوشي لها وكأن الساعة قد أزفت:

طبول تعزفها أيادٍ معروقة، حناجر مبحوحة تنبعث منها أصوات
تبدو كاستغاثات من يحاصروهم الموت، نساءً انطبعت على خدودهن
آثار دموع ذرفتها بسخاءٍ وحرقة، وأخريات ندرن أنفسهنّ لخدمة

الزوار.. وعلى يسار الضريح ليس بعيداً عن القبة، رجالٌ انتصبوا واقفين كأشجار البان يُتمتمون بالأدعية وقد اكتست وجوههم غبرة وتبدلت سحناتهم.

خطتُ "زهرة" باتجاه زمرة من النساء اصططفن خلف القبة وعناقيد الشوق تحف بهنّ وهنّ ينتظرنّ دورهنّ لتقديم قرابينهنّ إلى صاحب الضريح الراقد هنا منذ زمن بعيد!

كان شيخ الدراويش يجول بين الناس ويحثهم على التهليل والتكبير ويدور كجمل الساقية حول القبة، ثم يعرّج إلى الحجر الذي يضع الناس تحته القرابين، وبجركة رشيقة وخاطفة يضع يده على ما تحته من مال، ثم يدسّه في جيب جُبتة الواسعة ثم يعود مرةً أخرى لمعاودة حركاته البهلوانية!

في غمرة الدهشة والذهول نسيت "زهرة" أن تخلع حذاءها، فمشت بضع خطوات لم تدرِ بعدها ما حدث لها، فقد غابت عن الوعي لمدة من الزمن، لكنها أدركت حين أفاقت من غيبوبتها إنها قد وقعت في المخطور، بل استشعرت فداحة الخطب من حديث المرأة التي كانت تعني بها وتضع قماشاً مبللاً بالماء البارد فوق الدمامل المحتقنة التي خلّفها على ظهرها كُرباجُ السادن الذي أغضبه تدنيس الضريح بالحذاء.

"ألا تخشين غضبَ الأولياء؟"، قالت المرأة وهي تمرر يدها برفق على آثار الضربة، ثم أضافت: "لا تغضي يا بني، بل احمدي الله أن حُرَّاس الضريح قد خلَّصوك من الإثم، فلا تنسي بعد اليوم أن تخلعي حذاءك وتتأدبي في حضرة السادة!".

"ليتهم يخلَّصوننا مما نحن فيه"، همست "زهرة" لنفسها، ثم افترشت الأرض ونامت كما لم تنم من قبل.

ستتوغل تلك الصبية البائسة في غابة التيه وتمخر عبابَ أيام كالحة. ستصطلي بنار الفقد والحрман، وتعبّ من دنان العشق لحبيب اقتفى أثر الموت حتى الوصول.

سيطول بها السفر، وتمتد نحوها أذرع المنافي وتلقفها وترمي بها بعيداً بعيداً، هناك في قاع الأرض، قاب قوسين أو أدنى من "نهاية الكون" كما يبدو لها.

لقد ضنّت عليها الأيام بلحظات هائلة تستريح فيها من وعناء السفر وعناء الترحال، فهي لا تعرف كيف تستجير من عنت الحياة وقسوتها؛ أبالحنين إلى ذلك الماضي، أم بالنسيان؟

كيف تغسل قلبها من شوائب الحزن العالقه فيه؟

تشيخ ببصرها حين تقع عيناها على موقع منفاها الجديد في ركنٍ قصي على خريطة العالم.

لا تصدّق أن الأقدار رمت بها هناك بالقرب من (waga - waga)

تسأل صديقتها الصومالية والدهشة تفيض من عينيها:

- أحقاً نحن نعيش هنا؟

تنظر "لؤلؤة" إلى يدها المثبتة في أسفل الخريطة، ثم تجيها من دون

اكتراث:

- نعم.

- لم نكن نظن أن لهذا المكان وجوداً في الخريطة، فقد كنا نستخدم

عبارة "الواق واق" كصيغة للمبالغة في التعبير عن البُعد والاغتراب.

- أكثر ما يقلقني يا "زهرة" هو هذه السماء المثقوبة.

تُسمّمها رفيقتها بجرعةٍ إضافية من الرعب والخوف.

- ألم تسمعي بثقب الأوزون؟

تسترسل "لؤلؤة" التي لكثرت ما تكالبت عليها نحن، ما عادت تعشق

من الألوان سوى الأسود القاتم.

- كثيرة هي الأمراض التي يسببها هذا الثقب اللعين، أقلّها خطورةً

مرض السرطان.

- ولكن...

تتحفز "لؤلؤة" لتوجه سؤالاً كالنصل الحاد، وإن بدت فيه أكثر اقتراباً من جوهر الحقيقة المرّة:

- أيهما أفضل لنا؛ أن نعيش هنا في قعر الدنيا تحت شمس تشعّ وبالاً، أم في تلك الأوطان التي لا تجود علينا سوى بالموت المجاني؟

- إذن، لقد كفرت بالأوطان يا "لؤلؤة"!

- وما مفهوم الوطن عندك يا "زهرة"؟

..... -

- الوطن يا "زهرة" هو المكان الذي يمنحنا الدفء، وهو المكان الذي يشعر فيه الإنسان بآدميته، فهل وجدنا ذلك في أوطاننا؟ لقد عشتُ في "مقديشو" نصفَ عمري أو أكثر، أترقّب بقلب واجف رصاصةً تنهي حياتي! لقد وجدنا هنا ما لم نجده هناك، فلماذا نتشبث بأوطانٍ تضنّ علينا بأبسط حقوق الإنسان؟

لم تجد "زهرة" ما تقوله، فبقدر ما أفحمها ذلك المنطق، وجدت صعوبةً في استيعاب فكرة أن تُلغى مفردة "الوطن" من قاموس قناعاتها الراسخة في ذهنها منذ الأزل.

هكذا، حرّك ذلك الحديث الشجي في نفسها رواكد لذكريات آسنة بالبؤس والشجن، فنهضت بخفة وخطت بضع خطوات، ثم دلفت إلى غرفتها وصرقت خلفها الباب.

- عبيطة يا "زهرة" .. والله عبيطة، تريدان أن ندفن رؤوسنا في الرمال ونسمي الأشياء بغير أسمائها؟!

بقدر ما أنست "زهرة" في صديقتها الطيبة والوفاء، كانت تجد فيها الكثير من الرعونة التي لا تناسب عمرها، إذ لم تكن "لؤلؤة" قد تجاوزت العقد الثاني بعد. لقد عركتها الحياة.. فحين تتحدث عن دورها في الحرب التي أكلت الأخضر واليابس في "مقديشو" تتصور أنك أمام أكبر جنرالات الحروب وأبطال القصص البوليسية. فقد أذهلت "زهرة" بحكاياتٍ مدهشة تبدو لكل من يسمعها كالأساطير.

حدثتها ذات ليلة ممطرة تساقط فيها الثلج من سماء "ملبورن" كما لم يتساقط من قبل، عن شقيقها الذي قتل شيخه الذي حفظ القرآن على يده بدم بارد، امتثالاً لأمر القبيلة ليس إلا!

"أنا أيضاً تعلمتُ القرآن على يده"، تقول "لؤلؤة" والدموع تسيل على خديها ثم تواصل حديثها: "كان الشيخ (ورسمه) رجلاً تقياً وطيباً، لكنه أمر القبيلة يا أختي، ومن لا يلي نداء القبيلة عندنا يظل منبوذاً".

"نحن أيضاً تعطينا هذا المسخ المشين"، تمتمت "زهرة" في سرها بينما ظلت تنابع حديث صديقتها بإصغاءٍ ودهشة.

- رجوتُه يومذاك أن ينأى بنفسه عن فعل حماقة كهذه تُغضب الله، لكنه فعلها.. نعم فعلها والقلب يترف دماً!

كان المطر يرسل سيّاطاً تلسع النافذة، و"زهرة" التي تعودت أن
تبتسم للحياة حتى في أكثر لحظات التعثر والضياع، بدأت تستكين
للبأس وتستسلم لجحافل أحزائها التي لا تأتي إلا رديفاً لأحزان تسبقها.
"ما أجمل هذا الصباح"، هتفت "زهرة" صبيحةً اليوم التالي وهي
تعبئ رثيها أكسجيناً نقياً وتنظر بإعجاب إلى الشمس الساطعة في أفقٍ
له لون المُقل، ثم تساءلت وقد استبدت بها الشوق:

— ما بال الوطن يغدو ساحراً جميلاً في أعيننا كلما ضاقت به
الدوائر واشتدت عليه الكُرب؟

آن تغادر "زهرة" نومها المتقطع، ترجو الصباح أن يأخذها إلى فرحٍ
تطلّ به على أريكة الوطن المزترّ بالعناقيد وقطوف الصندل.
تشد وترَ القوس، وتتوغل في اجترار أحلام مراوغة تغازل عينيها،
ثم تعبر مثل سحابة عابثة.

قبل أن تنهض من فراشها تنأهى إلى أذنيها صوتٌ شجيّ كان
مصدره الشقة المجاورة التي يسكنها شاب فلسطيني كان قد وصل إلى
أستراليا قبل أيام معبأً في قوارب الموت القادمة من أندونيسيا..

كان يردد بحزنٍ شفيف مقطوعاً من إحدى أغنيات محمد عبد
الوهاب:

"أخي جاوز الظالمون المدى.. فحقّ الجهاد وحقّ الفدى".

هي أيضاً، تجاوزَ حزنها المدى، لكنها تكابد عناءً صخرياً لتدفنه في
رمال النسيان، ولكن كيف تنسى الوطن المنغرس في أوردتها عشقاً
وهياماً؟ بل، كيف تنسى فارس أحلامها الذي غاب عن عينيها ولم يغب
عن تسرّبه الدائم في دمائها؟

نهضت من فراشها منكسرة حزينة كشاطئ المحسر الماء عنه.
كانت "لؤلؤة" إذ ذاك تهذي في غرفتها بأحلامٍ وكوايبس مرعبة،
وكان العرق يتصبب من جبينها رغم برودة الطقس.
انثنت "زهرة"، ثم دنت من وجهها، وبنحوٍ ورفق وضعت يدها على
خدها تحثها على النهوض.

نهضت "لؤلؤة" مذعورة، ثم انخرطت في بكاءٍ أشبه بالعويل.
كانت الغرفة مظلمة إلا من ضوء خافت يتسرّب عبر ذؤابة شعلة
تراقص في وجه "لؤلؤة الشاحب الحزين.

رغم التشوهات التي كست دواخلها وأكسبتها رعونة وغلظة
منفّرة، إلا أن جمالها الأخاذ كان يملأ فضاء الحدقة.

لم تسألها "زهرة" عن سر بكائها، فهي تعلم أن أيامها كلها ليس
فيها سوى ما يبعث على البكاء، ثم إنها كانت في ذلك اليوم مهمومة
بأخبار الثوّار الذين كانوا يزحفون نحو "أسمرّة".
- يجب أن نصافح الحياة وأن نتحدّى.

هذه العبارة المقتضبة واست "زهرة" صديقتها، ثم انتحت ركناً
ووهبت أذنيها إلى المذياع الذي كان يدغدغ حواسها باقتراب ساعة
الحسم والانتصار.

جعلت تنتقل من محطة إذاعية إلى أخرى ودموغُ الفرح تفيض من
عينها: صوت العرب، بي بي سي، مونتي كارلو...

وجدت نفسها كمن يسير على بحر لا يدري متى تصادفه اليابسة،
فهي وإن كانت تؤمن بجمية الانتصار وتثق في صلابة الثوار، إلا أنها
كانت قد تعودت على الحيات وأدمنت التعثر والفشل.

أخيراً، ثبتت قرص المذياع على محطة "صوت الجماهير"، وجعلت
تصغي لصوتٍ كان يصنع في دواخلها فرحاً ينسيها عذابات أيامها
الكالحة.

كانت كلماته تترقرق في أذنيها كخبرٍ نهرٍ يشق طريقه بين
الوديان.

- من هنا، من "أسمرّة"، حيث تشرق الشمس بعد طول غياب
ويغرّد الفجر الجميل أنشودة الانتصار.

يصمت "عمّار" وتتحشرج في حنجرتة الكلمات.
يتوقف البث هنيهات، فتتوقف شرايينها عن النبض.
يعود البث هادراً بالنشيد الوطني:

"لكي تحتل مكانها بين الأمم
نسترخص أرواحنا من أجلها
لم نقل نعم ولم نركع، ولم نخمد
إرادة النضال
تعاهدنا أن تسمو أرتريا
أرتريا... أرتريا... أرتريا".

جحظت عيناها كأنها لا تصدق ما تسمع، بل تكاثفت أمام ناظرها
خطوطٌ متماوجة لصور ومشاهد متناقضة:

ملامح "منصور" المنثورة في محيط ذاكرتها وأطلال مخيلتها، أبوها
الذي ما انفكت ذكراه تتمدد في أعماقها جرحاً لا يندمل، أمها
وإخوتها الذين انزلقوا من بين يديها كفرحة هاربة، رفاق طفولتها الذين
ما برحوا يعيشون فوق أنقاض ذاكرتها، "عونا" التي تلاشت وصارت
أثراً بعد عين.

سرت في أوصالها رعشة، واصطفت في دواخلها طواير العذابات
التي تجرعت مراراتها منذ أن تمزق الخيط الذي كان يربطها بالوطن.
لحظات من التبلد الحسي غمرت أرجاء جسدها، وسرت فيه كما
يسرى التيار في الأسلاك.

كيف تصدق أن حلمها لم ينطفئ قبل أن يزهو؟

كم تَلطَى في أعماقها ظمأ الشوق، وكم ظلت ترقب السُحب
الحُبلى بالوعد الجميل، غيمة تطارد غيمة.

رويداً رويداً بدأ المسّ الكهربائي الذي شلّ حركتها يتسرّب عبر
عينيهَا دموعاً بلّلت خديها، فانطلقت تجري وتقفز كالفرس الجموح.

"آن الأوان للمواكب الجنائزية الحزينة أن تغادر، ولمواسم الأفراح
أن تزهر"، رددت في نفسها قبل أن تغادر منفاها البعيد.

وحين حلّقت بها الطائره في علوّ شاهق ولامست أجنحتها هامّ
السُحب، ارتعدت "زهرة" وللمرة الأولى منذ أن قذفت بها أمواج التيه
في لُجج الضياع، يتتاها الخوف والفرع ويتحوّل زهداها في الحياة إلى
رغبة وحرص لا نظير لهما.

إنه الأمل الذي لم تنطفئ جذوته في أعماقها يوماً، ومن يزرع الأمل
في دواخله لا يحصد سوى الفرح.

نعم، هو الأمل الذي ظلت تلوذ به كلما لوّنت آلام الغربة حياتها
بقتامة مُرّة.

يا لروعة "منصور" حين يزرع وردة في صحراء العدم ويصيح ملء
شديقه:

"الغد هو أجمل الأيام".

جيوش من الوسوس والمخاوف كانت تعتصر قلبها، خاصة حين
تواجه الطائرة المطبات الهوائية، فتنزّ أزيزاً تبدو خلاله كأنها ستنفجر.

لاذت "زهرة" بآياتٍ من القرآن الكريم، فشعرت بشيء من
الطمأنينة.

فتحت دفتر مذكراتها وجعلت تمرر عينها بين السطور، فوقع
بصرها على أول خاطرة سجلتها وهي تغادر مُكرَهَةً حين قرر "هايل"
أن يتخلَّص من شقيقه "قابيل" بالبندقية نفسها التي درَّبه على
استخدامها وتصويبها على صدر العدو!

"وداعاً أيها الوطن المكبَّل بالقيود..

وداعاً أيها الحُب الخرافي،

فسوف تنأى خُطاي بعيداً عن ضفافك،

وسأغوص في أغوار مأساتي

وأمنحك حزناً لا حدود له

ثم أمضي مبحرةً في فضاءات الذكرى

والتفاصيل الحميمة..

فمن غيرك أيها الوطن،

يغوص في دمي عشقاً وحباً وهياماً؟

من غير طيفك يوقظ أوتارَ حسي ودهشتي؟

من غيرك أيها الوطن؟".

"ماذا يفيد اجترار الأحزان وقد أشرقت الشمس؟"، تساءلت وقد تبددت أمواه العتمة التي كانت تمد أجنحة من الكآبة في دروبها الشائكة، وأشرق وجهها الذي خطت عليه موجع السنين خطوطاً غائرة.

هكذا، صارت تستعيد ألق الحياة وبريق الذكريات القديمة التي كانت تغزو مخيلتها أثناء الرحلة الطويلة من "ملبورن" إلى "أسمره":
"عونا" المنتصبه فوق التلال بقامتها المشربّة وظلال أشجارها الوارفة، أسراب الطيور العابرة وهي ترفرف بأجنحة الفرح فوق المزرعة المتاخمة لِدَارِهِم عند أطراف القرية، الغيوم التي تلهو وترحف بكسل فوق الهضاب والقمم الشاهقة، قطرات المطر الناعم وهي تنقر برفقٍ على أعشاش الطين القديمة، ضياء الغروب الشاحب حين تلفظ الشمس أنفاسها، أمّها التي انطفأت مثل شمعةٍ ذابت في صمت وسكون....

ذكرياتٌ تطارد ذكريات، عبرتُ مسرعةً أمام عينيها كرمادٍ تذروه الرياح.

- السادة والسيدات المسافرين على متن الخطوط الـ.....،
يحبيكم كابتن الطائرة وطاقم الرحلة.....، ويهنئوكم على سلامة الوصول إلى مطار "أسمره"....

كان ذلك النداء هو الخيط الفاصل بين الحزن والفرح، وليس أمامها الآن سوى أن تستعير من حدائق الخيال ابتسامة مشرقة تُلقي بها الوطن الذي كثيراً ما توسّدتَه حُلماً ظل يعدّب مخيلتها المجنّحة.

انسابت داخل المدينة كما ينساب الماء في النهر.

سارت في الطرقات مثل كائن غريب، تجوس بعينين فرحتين وتنفّس في الوجوه لعلها تجد بينهم من تبحث عنه.

- لقد تحقّق حلم العودة، فهل يتحقّق حلم اللقاء؟

- أياكون "منصور" على قيد الحياة، أم إن الحرب اللعينة قد أخذته في ما أخذت؟

نبتت على شفيتها حقول من التساؤلات.

- لقد أصر على الموت هنا، ولم تُثنه كل النداءات - ولم تُغرّه دعوات الأصدقاء الذين قدموا له تسهيلات الهجرة والاعتراب.

تراقصت أمام عينيها حروف الكلمات التي خطّها في آخر رسالة تلقّتها منه حين كان يقاتل في جبهة "مصوع":

"ها أنذا أنظر إلى البحر أمامي، فأتصور أنني سأضطر يوماً إلى الغوص فيه وعبوره سباحةً حتى أصل إلى شيطانٍ أخرى بعيداً عن ضفاف الوطن..

هذا الوطن الذي كلما أوغلنا في حُبّه، توغّل هو في الصدود!"

هزتها نبرته التشاؤمية التي لم تأنسها فيه من قبل.

رغم خلوّ المدن من مظاهر الحرب التي غيرت ملامحها، إلا أن مشهد الثوار وهم يتجولون بزّيهم العسكري وأحذيتهم البلاستيكية (الشده) كان يبعث في نفسها الزهو والفخر بالوطن المنتصر بشموخ الرجال وكبرياء النساء.

ودّت لو تعانقهم فرداً، فرداً، لكنها اكتفت بالتأمل والإعجاب.

لم تتغير "أسمرّة" كثيراً عمّا كانت عليه حين زارتها آخر مرة قبل عامين فقط من الطوفان الذي جرفها بعيداً عن الوطن.

لقد ظلت تفاصيل تلك المدينة قابضةً في قاع ذاكرتها، وقد آن لها أن تطفو إلى السطح: رائحة البخور والقهوة التي تعبق في الشوارع، وطعم "الكباتشينو" و"الماكياتو" الذي ظلت تتلذذ باستنشاق رائحته في غربتها ومنفاها كلما أمصّها الشوق والحنين إلى الوطن.

كان يتناها حينئذٍ جارف وشوقٌ عارم حين يتغلغل ذلك الإحساس في داخلها، فتتساءل والحسرة تمزق أحشاءها:

- لقد رحل "الطليان" ولم يخلفوا وراءهم سوى روائح "الكباتشينو" و"الماكياتو"، فماذا تُرى سيخلف هؤلاء "الرعاع" حين يرحلون، غير روائح الحريق والجثث المتعفنة؟

مشت على رصيف "كمشتات" ^{١٢} المكتظ بالناس الذين ارتسمت
في وجوههم إشاراتُ الفرح والسرور.
كان "إدريس" يصدح برائعة "كجراي":
"أغلى ما أملك يا قلبي مهراً لعيون الحرية
لبلادي في درب الأحرار تدك جدار الفاشية
ما عاد كفاحك يا وطني صفحات نضال مطوية".
"ما زال هذا البلبل الشادي في عنفوان تَأْلُقِهِ"، حدثت نفسها وقد
قفزت إلى ذاكرتها تلك الأيام الكالحة، حين هبّت عواصف هوجاء
واندفع إعصارٌ من غضبٍ لا يُبقي ولا يذر، حتى بدأ الحلم بالعيش في
الوطن يخبو ويذوب.
تلك أيام لا تذكُرُها إلا لتنساها، فحين أسدلت العتمة رداءً حالكً
السواد وتخضبت الأرض بالأحمر الغاني، بكت "حشنيث" ^{١٣} شهداءها!
- كيف هبّ الإعصار يومَ ذاك ومن الذي أشعل الحريق؟
كثيراً ما اهترأ السؤال على شفيتها من دون أن تعثر على الإجابة
الشافية.

¹² شارع الحرية الآن.

¹³ مدينة إريترية شهدت أول حرب أهلية شاملة.

حتى "منصور" الذي كانت تلوذ به لفكّ الطلاسم وحلّ المعضلات التي تستعصي عليها، لم يكن بالقدر الذي يؤهله لتفسير ما حدث. فقط حاول أن يقنعها بضرورة إجراء "عملية جراحية" لتطهير الوطن من دنس الخونة، أو كما قال في رسالة جلبت لها حزناً كاسحاً: "سترلزل الأرض تحت أقدامهم، وسنطهّر الوطن من دنس الخونة الذين تمادوا في إيذائنا وطعننا من الخلف!".

أوغرت تلك الكلمات صدرها ساعتذاك، وأضمرت حقداً ضد من نعتهم بـ"الخونة".

لكنها الآن وقد تفتحت مداركها وأصبحت تميّز بين الأبيض والأسود، لم تعد تغويها شعارات السياسة وخطاباتهم الممجوجة.

— ولكن، أين أنت يا "منصور"؟

تعود الأسئلة لتتوالد في مخيلتها ويستمر بحثها عنه من دون أن يتسلل اليأس إلى قلبها.

أيام مرّت، تلتها أيام وهي لا تملّ حياكة الأحلام الوردية وتطريز الأمازي الجميلة ثوباً لزفافها المرتقب.

كأنّ فارس أحلامها قد غادر ذات يوم في نزهة قصيرة إلى جزر رومانسية، ظلت تترقّب مجيئه بلا كللٍ أو ملل، ولم تطراً على بالها فرضية الاستشهاد، أو لعلها كانت تطرد هذه الفكرة وتستبعدّها تشبثاً بتلايب الأمل وحلم اللقاء.

وهي إذ تنسى فلن تنسى ما قاله لها ذات وعد جميل:

"لقد افترقنا يا (زهرة) وثُنها في مسارب الحياة الشائكة، لكننا حتماً سنعود ونلتقي في رحاب الوطن المحرَّر".

تلك الوعود المخملية والأمانى السرمدية كانت تمسّ ذباب اليأس والضجر عنها، وتمدّها بطاقة تغذّي شكيמתها وتقويّها كلما اتسع جدار الخوف في قلبها.

هكذا تمشي "زهرة" في الطرقات تبحث عن نصفها الثاني، تنظر في وجوه المارة فتلمح "عريساً" يتأبط يد عروسه، فتدب الحسرة في قلبها وتلوذ بالصوت المغرّد.

يستنفر الصوت الطروب حواسّها المعطوبة ويعيدها إلى الماضي البعيد.

ما إن تسترجع ذلك الماضي التعييس حتى تستيقظ في ذاكرتها رائحة الدخان والدم المتخثر، فحين شحذ الرفاق سيوف البطش وسالت برك الدماء وقرع الحزن طبوله في أرجاء الوطن، انسل صوته وسط ذلك الموات، متدحرجاً من قاع الحزن، صارخاً في وجوه من عاثوا فساداً واستباحوا حرمة الأوطان:

– كفو بقلّ لسعر.. وزلام كفو تتكاري؟

"حقاً أيها النورس الصّدّاح، كيف يتزل المطر وكيف ينبت الزرع والأم تبكي فلذات أكبادها المتحارين وتصرخ كما الخنساء: قاتلة أنا

ومقتولة!"، تساءلت مستكربةً، ثم صعّدت نظرَها في سماءٍ زرقاءٍ مترامية الأطراف.

كانت زُرقة السماء تمتد في جميع الاتجاهات كدائرة تحيط بالأفق وتسوّره.

وكانت "أسمرّة" حينذاك تتزيّن لاستقبال أفواج من العشاق، جاءوا من كل صوب وحدث، جاءوا مهرولين وظمأً الشوق بادٍ في وجوههم. واصلت سيرها وكمشطات يقذف أفواجاً من البشر.

توقفت عند المنحنى المؤدي إلى "سينما كاييتول"، أحست بالجوع يقرص معدتها، انحنت يميناً واتجهت إلى "مقهى الشروق"، التهمت طبق الفول بنهمٍ ثم طلبت كوباً من الشاي.

الرشفة الأولى أعادت توازنها إليها، وأنعشت حواسها، فتوهجت دواخلها كحُمرة الأصائل.

أما الرشفة الثانية فقد قرعت حواسّ الذاكرة وعادت بها إلى "ملبورن":

"لماذا غابت عن بالي كل هذه الأيام؟"، تساءلت وصورة البنت البهية تتماوج أمام عينيها.

— لقد قاسمَني شقاءُ الغربة وعذاباتها، وعلمتني كيف أسمو فوق الجراح.

شدها الشوق والعطف إلى تلك الشقية العيدة، التي كثيراً ما انحازت إليها وأسبلت عليها جفون الرحمة، لأنها كما تصفها دائماً "نسخة كربونية" من شقيقتها الصغرى "رحمة" التي لم ترحها نيران الحقد الأعمى في ذلك اليوم المشؤوم.

– أخاف عليك من نفسك يا "لؤلؤة"!

حدثتها ذات يوم بحنان الأم وعطفها، وناشدتها أن تترفق بنفسها ولا تعبأ بطواحين الأحزان التي تدور حولها.

لكن "لؤلؤة" اكتفت بنظرة خاوية من أي معنى، كأنها تمد لسانها ساخرة كعادتها وتقول:

– ذهبت أيام العمر كله هباء، ولم يبق سوى الجرح، فما الذس تخافين عليّ منه؟

وضعت يدها على خدها وانحنت على الطاولة تنظر إلى الخطوط المنقوشة بدقة ومهارة على الغطاء الحريري المطرز بألوان زاهية.

كان المقهى مكتظاً بالشباب القادمين من السودان، وأولئك الذين تلقوا تعليمهم في سوريا وبعض الدول العربية.

كانوا يتحدثون بأصوات عالية تارة، وفي أخرى يتهامون. بدا أحدهم – واسمه "صلاح" – غاضباً، مغتاضاً، يلعن حظه العاثر، بينما كان زميلاه يحدّثانه على الهدوء والتروي.

- لقد جئنا بآمالٍ عريضةٍ تحطمتُ هنا على صخرة الواقع المزري،
كأن هذا الوطن ليس لنا، فماذا ننتظر؟

.....

- تمميش اللغة العربية بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، فأنا كائن
حي يتنفس ثقافة عربية، هل فهمتما؟

كان صلاح يصرخ غاضباً ويصر على الرحيل أو كما قال:

- أن أعيش هناك لاجئاً مشرداً، أهون عليّ من هذا الوضع المهين!

أزعجها ما سمعتُ، لكنها كانت منشغلة بنفسها عمّا سواها.

رفعت بصرها إلى أعلى، فاصطدمت عيناها بصورةٍ لفارسٍ يمتطي

صهوة حصانه ويحمل بيده اليمنى بندقيّة قديمة من طراز "أبو عشرة".

"ليتك كنت معنا اليوم، لتفرح مثلنا، وتحصد ثمار ما زرعتُ بيدك

الجرينة يا (عواي)، تمتمت همساً كأنها تخاطب شخصاً أمامها بلحمه

ودمه!

وضعت يدها على الطاولة وهمت بالنهوض.

اتسعت حدقتا عينيها حين وجدت نفسها أمام وجهٍ بدا مألوفاً،

فعدادت إلى مقعدها وجعلت تشحد زناد الذاكرة.

تزاхمت في رأسها صور عديدة لرجال قابلتهم في حياتها، فاحتارت

بين الصورة والأصل!

الصورة هي تلك التي تحوم في خيالها وتخدش غشاء الذاكرة، ثم تبدو كالزئبق الذي تظنه في قبضتها، لكنه سرعان ما يفلت من بين يديها ويقفز بعيداً عن مدار الذاكرة.

أما الأصل، فذاك الجالس أمامها بسحنةٍ بائسة، يحتسي القهوة بطريقة تبعث على الاشمئزاز والنفور، يحدّق في الأشياء بذهول تتسع له حدقتا عينيه بشكلٍ مخيف وقد اختطّ الزمان في وجهه تجاعيد كادت تخفي ملامحه.

ولكي تكتمل الصورة البائسة لذلك الرجل الغريب الذي تظن بل تكاد تجزم أنها تعرفه، نظرت إلى أسفل الكرسي الذي يجلس عليه فرأت ما أحزنها.

"يا للمسكين! إنه أحد معوقي جيش التحرير الذين تعج بهم المدينة!"، "لقد دفع شعبنا الثمن باهظاً كي تسطع الشمس في سمائه ويكتمل الشروق"، حدثت نفسها والحزن يمزق قلبها. شحذت قواها الخائرة ونهضت بثناقل.

خطواتها الواهنة كانت تشي بما يعتمل في نفسها من هموم. تقدمت نحوه خطوه، خطوتين، ثم وقفت أمامه وغرزت عينيها في وجهه الطافح بالأسى والشجون.

تأملته ملياً ثم صرخت صرخة مدوية ارتج لها المكان:

"بهدوراي!"

بدا لها "بهدوراي" كالمارد أو العفريت الذي يأتي بأشياء تخرق
نواميس الطبيعة، كأن ينفذ من ثقب ضيق رغم ضخامة جسمه، أو أن
تراه جالساً في أتونٍ ملتهب يتمطى ويبتسم كأنه يجلس على مقعد وثير!
- "بهدوراي"، أتعرف من أنا؟

تلمل "بهدوراي" كأنه يحاول أن يتذكر، فوضع إصبعه على رأسه
ثم تحرك في مقعده، لكنه عاد مرة أخرى إلى شروده.

- أنا "زهرة" يا بهدوراي... "زهرة أرها" التي جئتُها برسالةٍ من
"منصور" قبل عشرين سنة..

حين أتت على ذكر "منصور" أفاق "بهدوراي" من شروده واهتز
جسده، ثم نظر إليها بدهشة:

- نعم.. أنا "زهرة" يا "بهدوراي"، ألا تذكرني؟

لزم "بهدوراي" الصمت، وظل واجماً، غارقاً في شروده!

انتبهت "زهرة" إلى قنينة دواء الاكتئاب الموضوعه أمامه على
الطاولة، وإلى ملابسه المتسخة، ثم إلى قدميه المبتورتين، فبكت بكاءً
مُرّاً.

"تَباً لها... تَباً لها... تَباً لها"، ردّد "بهدوراي" وهو يفتح فمه بعد صمت طويل.

"من هي... حدثني يا (بهدوراي).. من هي؟"، سألته "زهرة" بفضول وخوف.

صمت "بهدوراي" برهةً، ثم انبرى يحكي والعبرة تكاد تخنقه:
- "دقي أمحري"، تلك البقعة العنيدة التي وقفت أمامنا عقبةً كأداء وخطفت منا أعظم الرجال!
سحبت "زهرة" كرسيّاً وجلست أمامه بإصغاء.

شعر "بهدوراي" برغبةٍ في تفرّغ شحنةٍ من الحزن الذي كان يسحق دواخله، فبدأ يتحدث عن تلك المعركة التي رصدت الكاميرا وقائعها في تسجيلٍ حيّ، فبكى كل من شاهدها على الشهداء الذين تساقطوا كأوراق الخريف.

- دخلنا المدينة في العاشرة صباحاً، وما كدنا ننظف التخوم من الألغام لنفتح الطريق لرفاقنا الذين سيدخلونها من الجهة الشرقية وفق الخطة الموضوعة، حتى صبّت السماء علينا وابلأ من الرصاص! لا أحد يدري من أيّ جُحْرٍ خرجوا إلينا، فالمعلومات التي كانت بجوزتنا تشير

إلى هروهم خارج المدينة بعد أن أخذوا معهم ما خفّ حملته... لقد حدثت في تلك المعركة أخطاء فادحة دفعنا ثمنها باهظاً. صمت قليلاً ثم استدار في جلسته ليقابل "زهرة" وجهاً لوجه، ثم واصل حديثه:

- تصوري أن قائد فرقة المدرعات الذي جاء لمساندة كتيبتنا المحاصرة، أمر بفتح النار علينا ظناً منه أننا جيش العدو! رغم ما أصابه من عطب في الذاكرة، إلا أنه كان يتحدث عن تلك المعركة كما لو أن وقائعها تدور أمامه الآن.

لقد تبخرت من ذهنه تفاصيل كثيرة وأحداث مثيرة إلا "دقي محري" التي ترسّبت في ذاكرته واستقرت في زاوية من زواياها لتعذب ما تبقى من جسدٍ بترت الحربُ الرعناء نصفه.

بدا "بهدوراي" كأنه ينفض عن كاهله حملاً ثقيلاً، ويزيح عن صدره كوابيسَ تجثم فوقه منذ زمن طويل.

لقد وجد في "زهرة" وهي تصغى إليه، مخرجاً من أقبية الكبت المعتمدة إلى براح البوح النقي.

هكذا جعل يطرد من صدره هواءً حاراً ثم يواصل حديثه الشجب في سردٍ موجه لكنه مُمتع!

- أول من سقط شهيداً كان ذلك البطل الجسور، الذي كان يشيع البهجة بيننا في الميدان، وقد كانت له عند كل حجر أو شجر، عند كل جبل أو سهل، قصة بطولية جديرة بأن تُروى. كان "الزبيدي" بلهجته السودانية وروحه الوثابة، ملحّ نضالنا وبلسم جراحنا. لقد عزّ عليّ أن أحمله في خرقةٍ بالية بعد أن انشطر جسده إلى نصفين. كنا نناديه "الزبيدي"، لأنه يشبه "الرشايدة" أو "الزبيدية" في لونه وشكله... وحده قائدٌ كتيبتنا كان يلقّبه بـ"عنتر"، وقد كان ذلك بالفعل اسماً على مسمّى، إذ كان "الزبيدي" حاضراً بيننا بجسارته النادرة وبسالته الفريدة.

كادت "زهرة" تسأله عن "منصور"، لكنها أطبقت على فمها خشيةً أن تعصف بها لطمة موجعة تُنهي لذة الانتظار الذي استمرت التقلُّب في أتونه!

أخذتها الذاكرة إلى زمنٍ بعيد، فانتابها حزن عاصف.

حزنٌ تشكّله اختلاجات الحنين إلى ذلك الماضي الذي ودّت لو يعود بكل ما فيه من نرفٍ وشجون، فهي وإن لم تذق لماضيها طعماً لذيذاً، خاضته برفقةٍ مأمونة، ولا تدري كيف ستخوض من دولها ما تبقى من رحلة العمر.

"منصور نوراي" ليس اسماً عابراً في حياتها، وقد ظلت ذكراه عصية على الامتزاج مع أيّ اسم آخر، حتى في الحلم، فكيف ستحتمل ألم الفراق؟

"لقد طغى عليه اللقب ولم يعد أحداً يذكر اسمه الحقيقي غيري، فقد كان قريباً مني كنبضي، أبته همومي وأحزاني فأجد عنده الملاذ والبلسم، يجديني معتمماً حزيناً، فتكون حاله إذ ذاك كحالي غمماً أو حزناً، عاد "بهدوراي" لحديثه الشجي، بينما ظلت "زهرة" جالسة بلا حراك، كلوحة مثبتة أمام رسّام يتأهب لوضع اللمسات الأخيره عليها.

- كان "عبدالله"، وهذا اسمه الحقيقي، يحلم برؤية البيت الذي أبصر فيه جدّه "قبيل"، النورَ في "عد حباب"، وكان يهّلل ويكبر حين يستمع للمغني وهو يغازل تلك المدينة/ الحلم: "لوهاته، كرن".. كان يتحدث عن "كرن" كما لو أنه عاش فيها ذات يوم وهلّ من معينها، وكان يحلم أن يقضي ما تبقى من عمره فيها بعد أن تتحطم الأغلال التي كبّلت جيد الوطن.

يتوقف "بهدوراي" عن الكلام، ثم يطلق ضحكة تبدو كأنها خارجة من مغاوير مظلمة. ضحكة خالية إلا من حسرة كانت تستبيح دواخله وتستصرخ فيها أوجاعاً مكبوتة، ثم يعود إلى حديثه من جديد:

- كان "عبد الله" متيمًا أيضاً بالمدينة السودانية التي وُلد وترعرع فيها، فحين سألته عنها ذات يوم، أطلق زفرةً عاشقٍ وهان ثم لخصَّ حبه لها في إيجاز رائع: "القضارف" مدينتي الآسرة، ولا أريد أن أتحدث عنها كثيراً حتى لا يُخال أنني لست منها!

كان "بهدوراي" الذي يعاني من اهتراء الذاكرة، مصاباً أيضاً بما يُعرف في علم النفس بمرض "الوفاء الكلبي"، نسبةً للكلاب التي تميزت عن غيرها من المخلوقات في الوفاء المطلق.

لقد ظل "بهدوراي" أسيراً لماضيه، وفيّاً لرفاقه الذين استشهدوا، وكان يتمنى دائماً لو أنه دُفن مثل أيٍّ منهم، في قبرٍ بلا شاهد!

وفيما كانت "زهرة" تنتظر على أحرّ من الجمر، لحظةَ إطلاق رصاصة الرحمة عليها وإنهاء حالة الترقب التي تصطلي بنارها، كان "بهدوراي" يلوّن فضاءها المتكسد بألوان الجراح، بمزيدٍ من الأحزان التي عمّقت فيها الإحساس باللوعة والشجن.

إنها تعلم أن مسارات حياتها الرتيبة لم تكن يوماً سالكة، فهي كالبحر الذي يغدر ولا يفِي بوعدِهِ، بل يجرّ مَنْ يركبه في مسالك غير آمنة.

وهي تعلم أيضاً أن حياتها كالدّهاليز، تفضي إلى فواجع ومواجع،
فلماذا تتجرد الآن من جرأتها في اقتحام الصعاب؟
لماذا لا تُنهي هذا الانتظار المميت؟
جعلت تحدّق بعمق في الكآبة التي ارتسمت على سحنة "بهدوراي"
ووجهه، ثم سألته بصوت متهدجٍ بدا كصوت المحتضر الذي يتشبث
بالحياة لآخر نفَس من أنفاسه:

– ماذا عن "منصور"، هل استشهد أم.....؟

ارتسمت على ثغره ابتسامة خرساء، لم تفلح في إخفاء الحزن
الراسخ في صدره، وجعل يتملّج الحزن الذابل في وجهها ليعود إلى
هذيانه الغريب، فتركتُهُ وانصرفت، وبقيةُ آمنيات في قلبها تلوذ خوفَ
أن يلحقها الأذى.

– أيّ سحر ينبجس من هذه المدينة؟

تساءلت وعيناها تجوسان شوارع "أسمرّة" التي كان رذاذٌ متساقط
يغسلها بصمت.

في طريقها إلى فندق "نيالا" حيث تقيم، كانت تقاوم إعصاراً من
الحنن اجتاح قلبها كعاصفة مباغثة، فأخذت تتلهى بالنظر إلى الروابي
التائهة في الغيم، وإلى القمم المتلفة بالاخضرار، وإلى تلك التلال التي
تلقي برؤوسها على سفوح الجبال.

.. كيف لا والأحباب يرحلون من دون وداع، والأمانى تبعثر
تباعاً مثل ذرات دقيق منشور بين حقول من الأشواك والألغام؟!
لقد قرأت مصيرها البائس في وجه "بهدوراي" وهي تتأمل الحزن
القاحل في عينيه، فتمايلت عيدان الأسى لتخربش دواخلها وارتعش
الحنن في قلبها وانتفض كطائر بلا أجنحة.

ولكن، ماذا يخيفها الآن وقد استمرت عذابات الفقد؟
ألم تترك وراءها أكواماً من الأيام التي احترقت بنار الحرمان؟
بدأت أمطار الذكريات تهطل على رأسها، وأخذت التفاصيل
الحزينة تعبت في محيلتها من دون أن تكفّ عن الالهمار.
كان الليل يلتهم ما تبقى من ضوء النهار، وكان الفضاء متخماً
بنجوم حيرى شاردة، لا يقوى ضوءها على طرد العتمة التي أسدلت
خيمة سوداء تلتفّع بها ذلك المساء الذي أرغمت فيه على الرحيل.

لم يكن في الوقت مَتَّسعٍ لتَحْزيمِ أمتعتها، ولا حتى لاختيار المنفى
الذي ستلوذ به أو تأوي إليه!

حشرتْ نفسها أو حُشرت في سيارَة "الفورد" القديمة، التي
انطلقت بها إلى قُطرٍ شقيق، لم تُنْسِهْ حفاوةً استقباله لها، ما ظلت تكابدُ
من حزن وحرمان.

ما زالت تذكر ملامح السائق ذي الأوداج المنتفخة، الذي لم يكفَّ
عن الثرثرة على طول المسافة، من "أغردات" حتى الحدود السودانية!
ها هي ذي مشاهد رحلة المنفى الكثيبة وتفاصيلها، تغزو مخيلتها
وتحوم أمام عينيها، مشهداً تلو آخر:

هزيم الرعد الداوي، قوس قُرح الذي كان يزيّن السماء بألوانه
الزاهية، غزلان البرية الراكضة على حواف الطرقات الجبلية الوعرة،
جماجم ضحايا حروب الإبادة المتناثرة على أطراف وادي "بركة"،
رائحة روث المواشي التي تحملها النسائم التي قهّب من الجنوب، القرى
الموحشة التي تبدو كما لو أنها لم تُسكّن قط...

احتشد الحزن فيها وهي تتابع سير الرحلة المرهقة وخيوط تفصيلها
التي كانت تُنسلّ بدقّة من أغوارٍ سحيقة لذاكره تقاوم الاهتراء.

توقفت أمام الفندق ولظى الفجيجة ينداح فوق رأسها وهي تتأمل
مشهداً يفرض سطوته وحضوره، ويحتل حيزاً في ذاكرتها، ولكم تمننت
لو أنها أفلتت من جاذبية الأرض أو ابتلعها اليم في خصمه الهائل قبل أن
تكون شاهدةً عليه!

فحين لعل الرصاص وطغى صوته على صوت "ماكينة" السيارة
القديمة، الخشوه كعلبة الكبريت بالنساء والأطفال، كاد نبضها يتوقف،
واستسلمت لشبح الموت الذى ظل يلاحقها كظلّها في كل مكان.
وها هي ذي ملامح الرجل القميء تمر أمام عينيها، تماماً كما رآته
في ذلك اليوم بسحنته الباهتة من دون أن تغير منها دورة الأيام
والسنين الطويلة شيئاً.

وها هو ذا صوته الأجش يحترق أذنيها وهو يصيح في وجهها بنبرة
ارتبطت في مخيلتها بالقمع والموت والتنكيل:

- " تطو بل... أو توقف!

توقفت السيارة، وفتح السائق الباب وظل جالساً على مقعده ينتظر
"الجرذ" الذي انسلّ من بين الصخور الحادة متجهاً صوبهم.

لم يكن في تلك الصحراء القاحلة ما يوحي بوجود وحوش برية،
ناهيك عن بشر، فاستغربت "زهرة" حين انشقت الأرض لتخرج منها
مجموعة من قُطَاعِ الطرق "العقامي" الذين نخر الجوعُ أحشاءهم، فعبروا
الحدود لينهبوا ويقتلوا ويروّعوا الأطفال والنساء.

لم تسمع وسط صراخ النساء وبكاء الأطفال، ما كان يردده
قائدهم الأبرص المهتاج، وهو ينتزع أقراط الذهب "فاي أنف" انتزاعاً
من أنوف النساء، غير مكترثٍ بالدماء التي تسيل منهنّ بغزارة!
ثم استأنفوا الرحيل و"زهرة" لا تكفّ عن البكاء وصوت الأبرص
المهتاج يكاد يثقب أذنيها، وملامح وجهه القميء تحوم أمام عينيها
كرصاصة تبحث عن هدف.

وتتهادى بهم السيارة القديمة، مخلفة وراءها الغبار والذكريات
الأليمة.

ثم تلوح لهم في الأفق البعيد، جبالُ "توتيل" المشرببة بأعناقها نحو
السماء، والتي تبدو بقامتها المديدة من بعيد كأنها ترّحب بهم وتمشّ في
وجوههم بأريحية أهل ذلك البلد المعطاء.

لم يُسقط تقادُم السنين لحظةً واحدةً من تفاصيل رحلة الوداع التي ظلت عالقة في ذهنها، فها هو ذا الصوت الشجي، المنبعث من مذياع السيارة القديمة، يهدد أشواقها ولوعتها، ويسكن نريف الجرح الكاسر في أعماقها.

وها هي ذي الكلمات تنساب في أذنيها رقيقة دافئة كهففة النسائم، فتصور أنها هي التي كتبت حروفها وهي التي مَوَسَّتْ أَلحافها الشجية:

"الغريب عن وطنو مهما طال غيابو

مصيرو يرجع تاني لأهلو وصحابو..

ينسى آلامو وشجونو

ينسى حرمانو وعذابو".

"يا لروعة ذلك البلد، ويا لطيبة إنسانه الجميل"، تردّد بصوتٍ مسموع، ثم تعود لتقطّب جبينها حين تتذكر معاناتها مع رجال الأمن الذين حاولوا التحرش بها وإنزالها من الباص المتجه إلى العاصمة في نقطة نائية في الخلاء البعيد!

"إنها على كل حال أخلاقياتٌ عددمن الذين انسلخوا عن الموروثات وتجردوا من القيم النبيلة"، تُحدّث نفسها كأنها تروّض

عواطفها كي لا يتسرّب الحقد الأسود ليلوث مساحات الود الذي
تكنّه لأولئك الناس الذين خصّوها بحضنٍ دافئٍ وغمروها بمشاعر طيبة.
ويستمر نهر الذكريات في الانسياب، ويتدفق الطيف الجميل،
فتلمح وجه صديقتها "السودانية" التي ذرفت لفراقها سيلاً من الدموع
الحارقة.

ثم يرتطم صوت والدها الجمهوري بأذنيها، دافئاً رقيقاً:

- يا "زهرة"، أنا شايفك زي "السُرّة" .. بتي دي، عشان كده ما ح
سيبك تسافري لبلد الخواجات البعيد داك.

- معليش يا عم "الحاك"، إن شاء الله الغربية ما تطول ونرجع قريب
لبلدنا.

ترُدّ دعوته بلطفٍ وامتنان، لكنه يلحّ عليها بمشاعر أبوية صادقة:

- "عليّ الطلاق" ما تسافري، يا بنتي نحن أكثر من أهل، والحدود
الجغرافية دي حاجة وهمية وضعها الاستعمار.

يصر عليها أن تعدل عن فكرة الرحيل، ثم يحدثها عن "سرور"
الذي دُفن في "أسمرّة" التي كان يعشقها حدّ الجنون.

هكذا تتوغل في اجترار الذكرى، فيستيقظ في أعماقها حزنٌ قديم.

لقد هسّمت مطرقة الزمن أضلاعها، لكنها لم تمسّ مستودع
الذكريات المرة التي لا تبارح مخيلتها إلا ليعود أشدّ وخزاً وإيلاماً!
كيف تروّض تباريح مأساتها، وكيف تضمّد جرح الذاكرة؟!
اقتربت من الفندق وذاكرتها ما برحت تترّف صور الحكايات
القاسية.

وقفت أمام موظف الاستقبال ونقدته بضع "نقفات" ^{١٤}، ثم حزمت
حقيبتها وانطلقت لا تلوي على شيء.

- كيف ستجد قريبتها التي أنتزعت منها كما يُنتزع الظفر من اللحم؟
- كيف ستكون لحظات اللقاء بعد كل هذه السنوات الطويلة؟
- كيف وكيف وكيف.....؟

حاصرهما تساؤلاتٍ مرّةً أهالت عليها كما ينهمر المطر بسخاء في
ذلك الصباح الأسمر اوي البارد.

لقد مضت على مأساتها سنوات طويلة، وما زال الجرح غائراً
تَنكُّوه الذكريات المؤلمة.

¹⁴ اسم العملة الإريتيرية ومفردتها نقفه.

أخذ الباص يتلوّى بهم في الطريق الوعرة، التي لا تفصلها عن
الهاوية العميقة سوى بضعة سنتيمترات لو أخطأ السائق في تقديرها
فعلى الدنيا السلام!

عمق الوجوم الذي ساد أجواء الرحلة، مشاعر الخوف في نفسها،
فتساءلت:

- ماذا لو انحدرت بنا الحافلة في هذه الهوة السحيقة؟

التفت إلى التي كانت تجلس جوارها في المقعد الأمامي وجاذبتها
أطراف الحديث علّها تطرد كوايس الرعب التي ملأت قلبها.

- لقد تعودت "لي تقراي" أن تغدر بالناس وتقتل أكبر عدد منهم
في كل عام.

حدّثتها المرأة وجعلت تعدّها أقاربها ومعارفها الذين فقدتهم في تلك
الطريق الخطرة، التي يسمونها "لي تقراي"، ثم أخذت تكيّل اللوم على
الحكومة التي انشغلت بتشديد السجون وبيوت الأشباح عوض أن
تدفع باتجاه البناء والتعمير.

- لقد تمنينا لهذا الوطن أن يعيش خارج حُمى الكراهية والبغضاء،
لكنّ هؤلاء المتغطرسين عادوا إلى زرع بذور الفتنة إشباعاً لرغباتهم
المريضة.

ودّت "زهرة" لو تُصمّ أذنيها كي لا تسمع مثل هذا الحديث،
ولكن من ذا الذي يستطيع أن يكبح جماح امرأة أسرجت خيول الحزن
والآهات لفقدي اثنين من فلذات أكبادها، استشهدا في حرب التحرير،
وثالث امتهن الصحافة وعشق الكلمة الحرة التريهة، فغيّبه الظلاميون
في أقبية السجون المظلمة!

لاذت بصحيفة كانت في يدها، ودست وجهها بين صفحاتها.

— من الذي انتزع الألفة والمودة من هذا الوطن؟

— من الذي سطا على مكتسباتنا وحرّيتنا؟

عادت المرأة المكلومة إلى حديثها الشجي وتساؤلها الطافحة
بالأسى، بينما ظلّت "زهرة" غارقة حتى أذنيها في ضباب التيه
والشroud.

"يا له من وطنٍ بات يطعن عُشاقه ويزداد تلاشياً وضمحللاً كلما
فاخروا به كوطنٍ يشبه كل الأوطان"، قالت بحسرة، ثم احتدّت نبرة
صوتها وجعلت تصبّ جام غضبها على "النظام" بلا تحفُّظ أو خوف.

— لقد رزّنا بمن دمروا وطناً كان ينتظر من بينيه، لا من يهدمه!

رويداً رويداً، بدأت الحافلة التي تتهادى بهم وسط الجبال الشاهقة،
تندحرج من الهضبة ببطءٍ شديد لتلامس الأرض المنبسطة، ثم لاحت

عبر الأفق البعيد، أضواءً مدينة ناعسة بدت أسقف بناياتها مائلة مثل سلام تتكى على جدار.

هكذا تبدو "كرون" للناظرين إليها من جهة المرتفعات شرقاً. نزول الحافلة بسلام من تلك الهضبة، وتجنبها الهوة التي لا قرار لها، جعل المرأة الساخطة تكوّر على شفيتها ابتسامة تشفّ عن فرحة بالغة. أما "زهرة" التي تعودت خلال غربتها التي طالت أن تذرف دمعين كلما ناوشها الحنين إلى الوطن، فقد حمد هدير الخوف النابت في أعماقها وتألّأت في عينيها ومضاتٌ مُشرقة، فجعلت تنظر عبر النافذة وتخيّل الحال التي ستجد عليها قريتها التي ظلّت تنسج لها من نول الذاكرة ملامح طافحةً بالبهجة والإمتاع.

إنها تعرف جيداً أن الخيال لا يمكن أن يجسّد شكلاً ليس له أساس في الواقع، لكنها تعودت أن تنشر ملاءات الفرح على حوافّ الشرفات الكثبية، وترشّ أحلامها بأنداء الطمأنينة والتفاؤل.

هكذا جعلت ترسم لـ"عوننا" الحبيبة صوراً "فرايحية" مزركشة بألوان الجمال الساحر، وأخذت تطلقها في فضاء المخيلة المنححة. وحين اقتربوا من المدينة، كانت جيوش الظلام قد تدافعت لتحاصر سيارتهم من كل الاتجاهات.

لم يكن في السماء قمرٌ، لكنّ النجوم كانت تومض كوهج البرق.
نظرت باتجاه "الألمبا" الذي توشى بنقابٍ حالك، ثم استدارت غرباً
لتلمح خيطاً من أشعة نجوم ساهية تستحمّ في مياه "شفشفت"
اللازوردية.

استبدّت بما رغبة للمقارنة بين المدينة التي تنام ليلاً المحفوف
بالضباب الكثيف، وتلك الحواضر البعيدة التي ترقص تحت أضواء
صاخبة، فأنحازت مشاعرُها إلى "كرون" التي أضفت عليها العتمة مسحةً
جمالٍ آسر!

عشرون عاماً قضتها في سفرٍ دائمٍ وحزنٍ متواصل، لا يرافقها
سوى ظلٍّ مُتعبٍ وذاكرةٍ لا تكفّ عن الترف.
كلما توغلت في جهةٍ ظنّنت أنّ لها منفذاً يفضي بها إلى ظلٍّ تأوي
إليه، دلّتها الجهةُ إلى سفرٍ لا نهاية له.

ولكن، هل تدعن وتستسلم لعائيات الحنن وقسوة الحياة، أم تستلهم
خطاها من تلك الغيوم الحُبلى التي تنهادى في السماء بتؤدة، ثم تصل في
نهاية المطاف إلى الجهة المقصودة لتفرّغ حولتها وتستريح؟
هكذا جعلت تنفض عن كاهلها غبارَ السفر الطويل وتستنشق ملءَ
رئيتها أكسجين الوطن النقيّ.

لقد وصلت متأخرةً كظلٌّ انحدر حثيثاً نحو الأفول، لكنّ ذلك لم يكن يهّمها، فكثيراً ما تمّتت يوم انتابها الحنين إلى "عونا"، أن يمنحها الله لحظة واحدة قبل الموت لتكحلّ عينيها برؤية الوطن الحبيب.

وها هي ذي في قلب المدينة التي ظلت تروي لها بعطر الكتابة والدموع، أبجديةَ الحب والشوق والحنين.

لقد تدفقت تحت الجسر مياةً كثيرة خلال الفترة التي غابت فيها عن الوطن، واقتلعت رياحُ التغيير كل منابت الأشياء إلا تلك المدينة التي احتفظت برونقها وبمائها، وظلّت تقاوم عسفَ الزمن وتراوغ الطعنات ومحاولات الاجتثاث، مثل فريسة تعلّمت من القنص المتكرر كيف تستشعر الخطر وتنخطى المصائد.

قضت "زهرة" ليلتها تلك في نُزُلٍ صغيرٍ جوار محطة الكهرباء القريبة من الميدان الذي يتوسط المدينة. الميدان نفسه الذي وجدت فيه قبل عشرين سنة، جُثّةً من كانت تبحث عنه معلّقةً على حبال المشنقو. كأن الزمن قد توقّف عند تلك اللحظة الكئيبة من ماضٍ قميءٍ لا يريد أن يُلملم أحزانه ويغادر.

وكان السنوات التي أمضتها بعيداً في دهاليز الملاجئ والمنافي محض حلمٍ عابر.

أرسلتُ نظراتٍ ذاهلة جالت بها في الميدان الفسيح، ثم خطت بضع خطوات وتوقفت في المكان نفسه الذي نُصبت فيه المقصلة التي أُعدم فيها "عتيل"، فأنحدرت من عينيها الدموع.

النُّزل الذي كُتبت على مدخله عبارة "فندق بركة"، لم يكن يرقى إلى مصاف الفنادق، لكنه على كل حال مكان آمن لامرأة وحيدة، ينوء كاهلها بأحمالٍ من الهموم والبلايا.

ظَلَّت ساهرة طوال الليل، تطرد النعاس بالتأمل والقراءة.

أعادت قراءة "الدون الهادي" للمرة الثالثة من الغلاف إلى الغلاف، وانفعلت بكل جوارحها وتعاطفت مع بطل الرواية "غريغوري" الذي وجدت فيه نسخة مشابهة لـ "منصور" الذي طواه الغياب.

فتحت دفتر مذكراتها، ثم أهرقت حبرَ أشواقها، حروفاً ندية لقريتها التي تتدثر نبضها وتملاً جوانحها:

"مثلما عشق غريغوري، الدون، ماءً وضافاً، أحبتك يا (عونا) وأعلنت عشقي وانتمائي إليك".

كانت الغرفة أضيق من أن تخطو فيها أكثر من خطوتين متتابعين، لكنها كانت أنيقة ونظيفة، تحتوي على سرير مفروش بملاءة بيضاء

ناصعة، وطاولة من خشب الأبنوس، ومرآة متوسطة الحجم عُلقَت
على الجدار، وحوض ماء قديم أكلَ الصدأ نصفه السفلي.

ربما كانت تلك أطولَ ليلةٍ مرّت بها، فقد ظلّت أبواب عينيها
المتعبتين مفتوحةً حتى الصباح. وظلت هي تفتفي آثار مَنْ لم يتركوا
خلفهم سوى أطياف ذكريات حزينة، وتتشمّم رائحتهم فرداً فرداً:
جدّتها التي كانت تفكّ أسرَ الأحلام الملقعة بالعموض، أبوها الذي ما
رأته ينحني يوماً إلا ليطلع قبلةً على جبينها، أمها التي تعودت أن ترسم
على ثغرها ابتسامة ترطبّ وجهَ الوحشة ويرنّ صوتها في أذنيها حين
تناديها بكل لغات الحب ومعانيها، إخوتها الصغار وفرحتهم بها حين
تعود إليهم بعد طول غياب...

— هل ستجد "عونا" التي صنعناها ذاكرتها وأشواقها؟

بحزنٍ وأسى، تحسست في مخيلتها تضاريسَ قريتها التي ظلّت تلوذ
بها كلما قرصها صقيعُ الغربة القاتلة.

هكذا ظلت تترقب بزوغ الفجر وتتقلّب على جمر الانتظار، حتى
لاح في الأفق شعاعُ ضوء باهت، يعلن عن ميلاد يوم جديد.

استقبلت ذلك الصباح بابتسامةٍ نديّة وفرحه بالغة، تماماً كما
يستقبل الأطفال أولَ خيط من خيوط فجر العيد، وقررت أن تقطع

المسافة بين "كرون" و"عوناً" سيراً على قدميها كما كانت تفعل مع جدتها التي كانت تبيع "البروش" والطواقي التي تصنعها من السعف في أسواق "كرون" مرة أو مرتين في الشهر، ثم تعود إلى "عوناً" محملة بالهدايا والملابس والطعام.

كانت تسير خلف جدتها وتتوقف، ثم تجلس على الأرض حين ينال التعب من قدميها الصغيرتين، فتتوقف الجده للحظات حتى تستعيد "زهرة" أنفاسها وقوتها لتستأنفا المسير معاً.

الفرق أنها ستسير اليوم بمفردها، لكنها ستسلك الطريق نفسها التي كانت تسلكها مع جدتها.

اعتراها صمت حزين وشوق دفين لـ "عوناً" التي تملأ ذاكرتها.

الطريق إلى "عوناً" موحشة ومقفرة كأنها تقود إلى الفراغ، و"زهرة" التي يناوش قلبها شغف الوصول وهفة العناق تغدّ السير ولا تلوي على شيء.

تُحَثّ قدميها على الإسراع وتناجي "عوناً" من عمق حزنها:

"أنتِ حلمي وما تبقى لي من خيط الحياة".

تواصل تدحرجها في فراغات الطريق المحفوفة بالخضرة اليانعة من كل الجهات، ثم تغيب في خيالاتٍ مُغمضة وذكريات تُعرج بها إلى

حواضر بعيدة، ثم تعود بها إلى "عونا" وأهلها الذين اقتلعهم إعصار الغياب.

تبدو لها الأرض كأنها تتمدد، والمسافة تتضاعف، فينال التعب منها، فتركن إلى صخرة ناتئة على جنبات الطريق وتجلس ريثما تستجمع قواها الخائرة.

يتصادى صوت جدّتها الحاني ويرتطم بأذنيها:

"هيا بنا يا زهرتي الجميلة، هيا انهضي لنصل قبل شروق الشمس!".
تتنفّض مدعورة، ثم تنهض مثل شخص يُبالغ في الانضباط ويحرص دائماً على الوصول مُبكراً.

تقبّ نسّمات رقيقة تتراقص عند أطراف القرية لتداعب الحياة في رفقٍ ولين.

وتقبّ مع النسّمات، بعضُ الذكريات التي عاشتها "زهرة" هناك قبل أن ينسف الزمن القاسي أحلامها الجميلة.

يتراقص أمامها طيفُ صديقتها التي كانت تُسقط بين كفيها بعض أسرار الصبايا الساذجة، بينما كانت "زهرة" تجتهد قدر ما حباها الله من حكمة أن ترفع عنها وعن أهلها في "عونا"، ندوبَ الأيام القاسية.

"أين أنتِ يا (سُعاد)؟"، تتساءل ثم تتوقف أمام الحجر الذي جلست فوقه "سُعاد" وهي ترتجف كريشة في مهب الريح، يوم وجدوا

"فرج نوراي"، شقيق "منصور"، جثة هامدة تحت الصخره المشرفة على القرية التي شاع فيها الرعب في ذلك اليوم المشؤوم. وترنو من أعلى القمة التي تنام تحتها، قريتها الحبيبة، منكسرة حزينة وقد أطبق عليها البؤس. تنتصب أشجارها صامتة، خرساء، متشحة بالأسى، وطرقهما الكثيبة ما زالت تبكي شموعها التي انطفأت ذات يوم بعيد.

حتى الشوارع والأزقة التي كانت تركض وتلعب فيها مع أترابها "أكابيو" و"قرجبع" و"سلباي" و...، بدت كأنها أفرغت منها الذكريات الجميلة كما أفرغ حلمها من تفتحه.

مشت باتجاه مترلهم الكائن بأطراف القرية، وتوقفت في منتصف المزرعة التي كانت تهرب إليها وتلوذ بها كلما داهمها حزنٌ تحرص على إخفائه عن أمها المريضة.

لم تصدق ما رأت؛ فكان أشجار الجوافة والليمون التي كانت تبسط خضرة يانعة على تلك الأرض قد رحلت مع من رحلوا، فبدت الأرض قطعة عظم فمَش الكلاب لحمها!

التفت يمناً ويساراً، فلم تجد أثراً لزريرة الأغنام التي كان ثغاؤها
يُحْيِي المكان.

لقد مُسحت قريتها وأزيلت من الوجود، فصارت كالعرجون
القديم.

أحسّت بخيَطٍ من الحُزن ينسل من أعماقها وارتعشت في داخلها
ذكريات أيام بعيدة.

هنا كانت تلعب مع أترابها، وهناك كانت تقف إلى جوار أمها كل
مساء، لتُعينها على الإمساك بالبقرة الوحيدة التي كانوا يعتمدون على
حليبها في غذائهم اليومي، فيشربونه ويصنعون منه السمن والزبدة
وغير ذلك من مُشتقات.

تضحك "زهرة" كأنها تُنفس غيظاً مكتوماً في أعماقها، وتبتسم حين
تتذكّر الطريقة التي كانت تكبح بها جماح العجل الصغير، الذي كان
يُصارع للوصول إلى ثدي أمه لينال حصته من الرضاعة!

كانت تُدخل أصابعها في فمه، فينهمك في مصّ أصابعها تماماً كما
يُمصّ ثدي أمه عند الرضاعة، حتى إذا ما انتهت أمها من الحلب وامتلاً
"العامور"^{١٥}، تسحب "زهرة" أصابعها من فمه، فينطلق ليرضع حتى
يشبع!

¹⁵ الإناء الذي تُحلب فيه الأبقار.

وقفت تتأمل مآل قربتها التي صارت أطلالاً بائسة، كئيبه، لا يُسمع فيها سوى عواء الريح وصفيرها.

"هل أخطأت العنوان؟"، تساءلت والدهشة تفيض من عينيها.

كلا. لم تُخطئ العنوان، لكنها أخطأت التقدير حين ظنت أن الأيام

القاسية قد انسحبت من حياتها!

هكذا وجدت نفسها تلملم ما تناثرَ من حُزنها وتعود أدراجها

لتواصل سيرها في موكب الرحيل القاسي.

وحين أرخى الليل سدولهُ وتغلغل الظلام في أرجاء المدينة المنكفنه

على ذاتها، اعتكفت في غرفتها الكئيبه بالفندق، ثقلب دفتر أحزائها

وخيباتها المتكررة.

أيقظ الفقدُ أشواقها، فأخذت تبكي على قربتها الحبيبة، التي ظلت

تجتزّ تفاصيلها الجميلة وتخبئها بين طيّات الذاكرة.

تناهى إلى أذنيها حوارٌ هامسٌ بين شخصين يتحدثان في العُرفة

المجاورة، ويبدو أن أحدهما كان حزيناً وقلقاً يتحدث بمرارةٍ وحسره عن

أمرٍ جلل، بينما بقي الآخر صامتاً لا يتحدث إلا لماماً:

- أشعرُ أننا قد بتنا كضيوف غير مرغوب فيهم، أو هكذا يُحاول هؤلاء أن يسرّبوا إلى قلوبنا هذا الشعور!

..... -

- لستُ متشائماً، لكنني فقط أنظر بعينٍ مفتوحة لما يدور حولنا، فحين يُساق العشرات من الرجال الذين صاغوا بالبطولات الفريدة أبجديات الانتماء لهذا الوطن إلى مصير مجهول، أليس في هذا مدعاة إلى التشاؤم؟

ساد الصمتُ طويلاً، فظنت "زهرة" أن باب الحوار قد أُغلق بينهما، لكن صوتَ رجل حَمَّت أنه رصين ومُثقل بالتجارب والحكم تسلل إلى أذنيها فجأة.

"قد يكون التشاؤم مفيد أحياناً، لكن في حالة واحدة"، قال الرجل ثم صمت قليلاً قبل أن يواصل:

- التشاؤم يا "صالح" يُمكن أن يفيدنا إذا أفضى بنا إلى التشخيص السليم للظرف أو الحالة التي يُمرُّ بها الوطن كي يتسنى لنا بعد ذلك معالجة الأمر بحكمة من دون أن نسمح للأحاسيس المنفلتة من عقال الذاكرة الملوثة بآثام الماضي، أن تلوّن فضاءنا الغائم أصلاً بأخطاءٍ أخرى لا تقلّ خطورةً عن تلك التي مُورست إبان سنوات النضال، من هؤلاء وأولئك على حد سواء!

اقتربت "زهرة" بفضول والتصقت بالجدار الفاصل بين الغرفتين وجعلت تُصغي.

- لا تنسَ يا صالح أننا مُقبلون على عهدٍ جديد، هو عهد الدولة التي يجب علينا جميعاً أن نُحرِّك دولابها في الاتجاه الصحيح و.....
"يبدو أن الماضي الذي نتحدث عنه قد مضى من دون أن يُلملم أطرافه السوداء من قلوبنا"، قاطعهُ صالح الذي بدا كأنهُ يبكي وهو يتساءل:

- قُل لي يا أستاذ "عامر"، أين هُم أولئك الرجال الذين صنعوا لنا هذه اللحظة التاريخية التي نُفاخر بها بين الأمم؟ أين "ديناي"، أين "محمد خير"، أين "داير"، أين.....؟

- هذا صحيح؛ فتراكُمات الأمس السالبة لم ترحل بعد، وهذه هي العقبة التي تُعيق طريقنا الآن، فمن المؤسف أن يتجرأ الظلاميون ويطفئوا الشموع التي أنارت لنا جميعاً عتمة الدروب الحالكة، لكن حتمية التاريخ تقول إن دولة الظلم لا تدوم، وإن الدكتاتوريات تحفر قبورها بأيديها، فلننتظر اليوم الذي ندفن فيه هذا النظام الفاسد، ولكن..

صمت "عامر" قليلاً، ثم دنا برأسه قريباً من أذنه قبل أن يواصل:
"لكن حتى يحين ذلك اليوم، يجب أن نتوخى الحيلة والحذر، فربما
يسقط مزيد من الضحايا، لأن الكلب المسعور يظل يُعضّ غيره حتى
آخر نبض في عروقه!".

- لا يا "عامر". لا. فأنا لم آتِ إلى هنا لأُدفن أحداً أو أُقاتل في
حروبٍ عبثية. لقد جئتُ هنا بنيةً صادقةً لأشارك في بناء الوطن الوليد،
وقد تركت خلفي مُغريات يسيل لها اللُعباب، فشهادتي التي أحرزتها
بامتياز في الهندسة المدنية تؤهلني للعمل في أيّ بقعة بالعالم، ولا تنسَ أن
أبواب الخليج مُسرعة لمنثلي من الأكاديميين المؤهلين..

وضع حقيبتَه على الأرض، وجعل يرمى فيها ملابسه وأغراضه
الخاصة، ثم وقف أمامه وقد التمع شعاعٌ من الدمع على مُقلتيه:

- نحن شعبٌ قُدّر له أن يعيش على هامش الحياة.. شعب يتصور
أن الحياة لا تستقيم إلا بالشقاق والاحتراب، وفوق ذلك فقد رُزنا
بقيادة لا تعرف كيف تكبح مشاعرها العدوانية تجاه من يخالفها الرأي.
لقد حطمت الثورة الفرنسية أغلال "الباستيل"، ثم أُرست دعائم الحرية
والديمقراطية، فماذا فعلت ثورتنا المنتصرة؟

"بل قُل، ماذا فعل الذين سرقوا الثورة؟"، قاطعه "عامر" بتساؤله هذا، فصمت "صالح" قليلاً ثم عاد إلى حديثه:

- هذا صحيح، فقد شيّد هؤلاء مزيداً من السجون، بل أضحى الوطن كله سجنًا يرزح الشعب خلف قضبانه.

"لكن لا جدوى الآن من التمادي في جلد الذات، فليس الأمر بخارجٍ عن قدرتنا على التجاوز، وهو لم يصل بعد إلى حد الانهيار"، قال "عامر" كأنه يحاذر أن يرُشّ الملح على الجرح.

ساد صمتٌ مشوب بالرهبة، فحبست "زهرة" أنفاسها وزمّت شفيتها متألمة وقد أثار ذلك الحديث الشجي في نفسها أعنف المشاعر.

"بل انهار كل شيء، لكنك تنظر إلى الأمور بمنظارٍ حالمٍ ومتفائل، عكس هذا الذي تراه أمامك، يتسم ابتسامة غامضة مثل ابتسامة أفعى جائعة، ولا يدري أحدٌ ماذا يُخبئ خلف هذه الابتسامة الماكرة"، قال "صالح" وهو يشير إلى صورة للرئيس كانت معلقة على الجدار، ثم أضاف:

- لقد انتفخت أوداج نرجسيته، حتى صار هو المُحقق، وهو الحكم، وهو الذي ينفذ الحكم!

وضعت "زهرة" يدها على الشَّق الأيسر من وجهها المتواري خلف حجابٍ من الاصفرار والذبول، واصلت الإصغاء بحرصٍ واهتمام.

- الرحيل هو الحل الأمثل يا "عامر"، فمن العبط أن نموت هنا بسبب "عطسة" تخرج من أنوفنا عفواً، فيصنع منها هؤلاء المتربصون خلف متاريس أحقادهم جريرةً تستوجب القصاص!

صمت قليلاً ثم تسلل صوته بُغْتَةً حين قرأ الدهشة على وجه "عامر":

- ما الغرابة في ذلك؟ ألسنا نحن الأرتريون الأكثر خبرةً من غيرنا في ارتياد المنافي وعبور المحيطات؟ ألسنا الأكثر خبرةً في السفر والهجرة والاعتراب؟ بل أرجو ألا تستغرب يا "عامر" إذا اكتشف العلماء يوماً في خلايانا "جين الرحيل"!

قال ذلك وهو يودعه بنظراتٍ لاذت به إلى مجاهيل مظلمة، حرَّكت فيه مواجع لجروحٍ مليئة بالقبيح.

ارتقى "عامر" على سريره وأخذ ينظر إلى أعلى كأنه ينادم السقف المرْتَجَّ بالوحشة، ثم لعن الأوطان التي تتناسل الحروب فيها ويتوارثها الناس جيلاً بعد جيل.

لقد فتح الغيابُ والفقْد، فراغاً واسعاً في صدره، فها هو ذا يودع
آخر الأصدقاء الذين غادروا جميعاً، إما إلى المنافي أو إلى السجون أو إلى
المشائق.

وحين بدأ المساء ينثر العتمة في كل الجهات، حاولت "زهرة" التي
انغرس الحزن في قلبها، أن تنفض عن نفسها رذاذ الصدمة، فجعلت
تتملّى طيف الغمام الذي كان يصعد ببطء فوق سماء المدينة، ثم وقفت
في هو الفندق تتنشّق الهواء الطلق ملء رئتيها، ثم أطلقت زفيراً حاراً
من صدرها الملتاع وعادت إلى غرفتها ونامت ليلتها تلك، مُسهّدة
ومُنهكة، تجتر تفاصيل أيامها القاسية وأقدارها التي ظلّت تقتلعها من
وحلٍ لترمى بها في وحلٍ آخر أشد قسوة.

وخزّتها النبرة اليائسة المُتَشائمة، التي صاغ بها "صالح" حديثه
الموجع، وإن كانت قد أيقنت قبل ذلك أنّ صمتَ أصوات الرصاص
وسكونها لم يكن يعني أن نار الحرب قد حمدت.

فحضت فجرَ اليوم التالي من فراشها مُنكسرة شاحبة، وأخذت تتأمل
ما حاق بها وبأمنياتها التي صارت تتلاشى كما يذوب الجليد تحت وهج
الشمس.

ما أبغض الرحيل وما أقسأه حين يأتي في غير مواسمه؛ هكذا،
فجأة، بلا ميعاد.

استرجعت ما قاله "صالح"، فانتفض قلبها وارتعشت فرائصها.
"كيف يكون الرحيل هو الحل الأمل وقد جئنا لنوقد الشموع
ابتهاجاً بطيِّ سيرته إلى الأبد؟"، تساءلت بجزن واستنكار، لكنها
عادت تُقلِّب الفكرة من كل الزوايا، فلم تجد حلاً آخر يلي
طموحها وأمنياتها.

هكذا وجدت نفسها مرةً أخرى تلملم أشلاءها وتيمّم شطر
الرحيل.

وقبل أن تُغادر باكيةً، ملأت صدرها المرهق بنسائم الصباح
"الكرونيه" المنعشة، ثم غمست يراع الحسرة والأسى في حبرٍ من
الدموع لتسجّل في دفتر أحزائها مرثية الوداع الأخير:

"أيها الغافي في حدق العيون وفي مسام الروح نبضاً وارتعاشاً..
ها أنذا أنثر همومك في سماواتي المشخنة بجراح النفي وغصّات
الرحيل.

وها هو ذا قلبي النازف حُباً يبحث عن أسطورةٍ تحرره من نار
عشقك كما حاول سيزيف^{١٦} أن يتحرر من صخرته العنيدة!
فكيف تُرى ستسوقني الخطأ بعيداً عن ضفافك وأنا التي أستنشك
هواءً نقياً وأفتاتك خبزاً طرياً؟

كم سألتك أيها الوطن الحبيب أن تكون ملاذي حين أحتاجك،
وكم دعوتك أن تكون قريباً مني كنبضي.. كم هرولت في دواخلي
الأمنيات؟

فوداعاً أيها الكامن في خلايا الروح، وداعاً أيها المتغلغل في ثنايا
القلب، وليهنأ الذين تماأوا لدفنك في حاويات قذاراتهم وشيدوا بيني
وبينك جسراً من الألغام.
ليهنأوا بما سرقوا من أحلام".

في طريقها إلى "أسمره"، غرزت عينيها المتعبتين في المدى الناصع
ونظرت مجزئ وأسى صوب الأفق المتكى على الفضاء الشاحب.

¹⁶ رمز العذاب الأبدي في الميثولوجيا الإغريقية.

تساقطت الأحداث المؤلمة، كالندف في صحن الذاكرة، فأخذت تندب حظها وترثي أيامها المضرجة بالفزع والحسرة التي كبرت في دواخلها يوماً بعد يوم، وتسَلَّقت معها جدار العمر الموبوء بالحسرات.

بعثر الحزن في داخلها خيوطه الداكنة كما يُبعثر البحرُ زُرْقته وأمواجه النافرة.

نبتت في أعماقها مداميكُ الأسى وذُبلت في عينيها المدينة الساحرة، فغدتُ وردةً بلا أريج.

بهِت البريق الذي كان يلتهم العتمة ويجعل ليالي "أسمرّة" شفيفاً كصباحات "عوننا" الحبيبة.

اكتسى وجه "كمشاتاتو" قناعاً من الحزن الماحق، وكفّ النورسُ الغريدُ عن الشّدو الجميل!

"هل بُحَّ صوته أم...؟"، تساءلت بأسى وسائق "التاكسي" الأرعن يصرّ على اختصار المسافة بين مطار "أسمرّة" ووسط المدينة بسرعة جنونية، كأنه يُلاحق قدراً مشؤوماً.

لقد جفّت كل الينابيع، وانسحقت تحت أقدام الطُّغاة كلُّ
أحلامها النديّة.

- إلى أين يتجه هذا الوطن المملّخ بالخيبة؟

رجّت الحيرةُ فيها تدياً مُترعاً بالدهشة والتساؤلات الحارقة،
فبكت حين حلّقت بها الطائرة عالياً في رحلة الوداع الأخير.

وهناك، في الأرض البعيدة، لاذت بـ"الأطلنطي" نديماً يؤنس
وحشتها، فأخذت تتأمل المراكب التي تطفو على شواطئه، تشدّها
المراسي الثقيلة، وجعلت تنظر في الأفق البعيد إلى السُّفن الراحلة،
فتمنّت أن تأخذها إلى حيث سارَ الموجُ والطوفان بمن رحلوا.

على صفحة ماء المحيط، المُشبع بالهمس الشفيف، انعكست
وجوههم المضيئة، فترأى لها إخوتها الصغار وهم يلعبون في بيتهم
الفسيح بـ"عوننا"، بينما لاحت أمها أمام ناظريها وعلى شفيتها
ابتسامة ملؤها الحُب والحنان.

حاولت "زهرة" أن تُمسك بحيط الطيف الجميل، لكنه انزلق من
بين يديها وتلاشى بين أمواج الخضم الهائل.

عادت إلى واقعها المزري الكئيب، تقاوم تيارَ حزنٍ كاسحاً
وأنصالَ غربةٍ تسرق كل يوم قطرةً من دمها.

أدمنت الجلوس خلف شاشات الفضائيات وصفحات الإنترنت
التي فتحت أمامها منفذاً في جدار الأمل، فصارت تنظر بتفاؤلٍ إلى
إمكانية التغيير وإسقاط النظام المستبدِّ، غير عابئةً بخريشات "لؤلؤة"
التي كانت تصر على أن الدكتاتوريات في إفريقيا هي صمّام الأمان
لحرية شعوبها، وأن المعارضة التي تنتمي "زهرة" إليها والتي تُنادي
بالديمقراطية والحرية هي ليست البديل الأفضل، مستشهدةً بما حدث
لوطنها الذي كان موحداً وقوياً في عهد العسكر، فتلاشى برحيلهم
وصار أثراً بعد عين!

انضمّت "زهرة" إلى صفوف المعارضة، لكنها اصطدمت بمماريس
من الحواجز الثقيلة، فعملت على رَأب الصدع بين هؤلاء وأولئك
من الذين فشلوا في تحطّي حواجز الماضي ومراراته، لكنها كانت
كمن يحرث في البحر!

أحزفها أن تتلاشى ملامحُ الوطن بين مطرقة نظامٍ جائرٍ وسندانٍ
مُعارضة أكثر هشاشةً من جناحي ذُبابة، فعادت تُغازل زُرقة المحيط
وتتأمل أمواجه النافرة، ثم نعت حُلْمها الذي عصفت به الأقدار:

يا وطن الجراح المُرة

ويا حُزننا الأبدي،

كما غرست حُبك فينا

علمنا كيف ننسى حُبَّك.